المطاردة

(رواية من الأدب البيلاروسي)

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد



المطاردة

(روايـة من الأدب البيلاروسي)

تأليـف : فاسيل بيكوف

ترجمة : د. هاشم حمادي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Облава

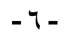
الكاتب: Василь Быков

الناشر: Москва,1986

المترجم: د. هاشم حمادي

هذه الرواية

تتحدث عن مصير الكادح الشريف هويدور روفبا ، المذنب ، الذي لا ذنب له ، والذي هرسته عجلة النظام الشمولي.



الفصل الأول

على مشارف القرية

اخضوضر المرج المغمور، المحاذي للنهر، وقد توزعت في أنحائه أجمات الصفصاف، بالعشب الخريفي المتأخر. وكانت الأمطار، التي هطلت منذ عهد قريب، قد تدفقت من المستنقعات المجاورة، ففاض الجدول، الذي عادة ما يكون ضحلاً في الصيف، وغمر المرج، الذي انتفخ كما المستنقع، بالطحلب الفتي اللين. كان الطحلب يغطس باستسلام تحت الأقدام، طارداً إلى السطح ميوعة عكرة، لكنه لا يغرق، فلم يكن ثمة مستنقع. كل ما في الأمر أن المرج تشبع بالماء الآن، في فصل الخريف، أما في الصيف، موسم حصاد الحشيش، فالمكان هنا جاف، حيث يسلكه الحصادون، وتعبره العربات المحملة بالحشائش. وحتى الآن لا تزال آثار العجلات وحوافر الجياد تطبطب بالماء الأسود في العشب الطري، الماء في كل مكان. وكما لو أنه محلول قلوي، كان يلتهم جلد الحذاء، ويبلل اللفائف[1] تماماً. كان لا بدَّ من الجلوس قليلاً، وتبديل الحذاء، لكن يبدو أن هذا الإنسان، الذي يشق طريقه بعناد، عبر هذا الغمر، غير مهتم بالبلل، ولا بخلو المكان من الطريق.

---

(١) اللفائف: قطع من القماش، تلف حول القدمين، كبديل عن الجوارب. / المترجم.

أشرف النهار الخريفي على نهايته، وخيم الهدوء على الكون، ولم يكن ثمة أي كائن حي في الجوار. كان الجميع في الحقول، يجنون البطاطا، وعلى الأرجح أن أحداً لم يكن مهتماً بما يجري في المرج المغمور البعيد. وعلى الرغم من أن الإنسان كان يعرف ذلك، لم يكن مرتاحاً، لا بل إنه كان قلقاً تقريباً. وبدت مشيته المستعجلة متوترة بشكل غير طبيعي. وكانت الهواجس القديمة تتجلى في نظرته الجامدة الحذرة، وفي التعبير المتجهم لوجهه الذي تجاوز مرحلة الشباب، والمغطى بلحية رمادية. كان فمه شبه مفتوح - نتيجة التعب، أو التوتر الدائم. ومن تحت شاربيه المتدليين برزت سناه السفليتان، أما الأسنان العلوية، فلم تكن ظاهرة البتة. كان الإنسان يتنفس بسرعة وبصوت أبح - على الأرجح أن هذا السير عبر الغمر، لم يكن بالأمر السهل، بالنسبة إليه. كان يرتدي سترة قماشية، دبَّ فيها البلى، تحمل رقعة عند القبة، وعلى البطن الضامرة قشاط ضيق، ذو نهاية متدلية. أما القبعة السوداء، المشدودة بإحكام على رأسه، فقد فقدت شكلها منذ عهد بعيد - على الأرجح أن سنوات عديدة مرت منذ أن دخلت الخدمة، والشيء نفسه ينطبق على البنطال، الذي كان يبدو لكثافة الرقع، الكبيرة والصغيرة، بالياً تماماً، لكن ذلك لا ينطبق على الحذاء. صحيح أنه كان منتفخاً من الماء، لكنه كان مصنوعاً من الجلد المدبوغ المتين، ومشدوداً على الرسغ برباط حبلي جديد، وقد أحاط بفردتي البنطال المبلل من الأسفل بمهارة. لم يكن الإنسان يحمل شيئاً، لا حقيبة ولا كيساً، وكانت يداه الطليقتان مطويتين بحذر عند الكوعين. لم يكن من الصعب التخمين أن الإنسان يسير وحيداً، منذ عهد بعيد، وأنه تآلف مع توحده، ويتجنب البشر بشكل غريب. كان البشر يشكلون الخطر الأكبر عليه في الحقول والقرى وعلى الطرق، فكان يتلافى المرور بالقرى، ويسلك الأجمات

والحقول، ويفضل الغابات على وجه الخصوص. وخلال توحده، كاد ينسى الأصوات البشرية، وكان هو نفسه يخلد إلى الصمت دائماً، منصرفاً إلى التفكير، ولا يكف عن تفحص الجوار بنفاد صبر. أما حاسة السمع لديه فقد أصبحت مرهفة جداً، إلى درجة أنه صار بوسعه تمييز حفيف الطيور بين الأغصان، والتقاط قرقعة العجلات على الطريق، على بعد فيرستا[1]، وكانت أصوات الأولاد الضعيفة، الآتية من بعيد، تدله على المكان، الذي يرعى فيه قطيع القرية. لم يكن يخاف القطيع، فقد صدف أن حصل على الطعام من الرعيان، ثلاث مرات - الخبز أو البطاطا، وفي ذات مرة فاز بقطعة من الشحم من الفتيات، اللواتي كن يرعين البقرات، قرب الغابة. فلدى خروجه من الأجمة، سألهن في البداية عن اسم القرية وعن أسمائهن، ثم طلب منهن بعض الخبز. كان من الواضح أن الفتيات شعرن بالخوف، بيد أن تلك الأكبر بينهن سارعت إلى إخراج قطعة من الخبز والشحم من الكيس الكبير، المتدلي على جسمها، ومدتها له بصمت، فتناول القطعة، وابتعد. وعلى الرغم من الجوع الضاري - جوع الذئب في شهر آذار - لم يباشر الأكل فوراً - لقد لامست نظرة الفتاة الوجلة شغاف قلبه، إذ أعادت إليه ذكرى أوليا، فجأة. عندها اندس بين شجيرات الصنوبر، وبكى ربما للمرة الأولى منذ أن دفن صغيرته. لم يكتب لها أن ترى الأرض الأم، فقد أخذها الرب، وهي في أرض غريبة، أما هو، الأب، فقد رآها.

انعطفت أرض الحصيد المزدانة بشجيرات الصفصاف والجدول، وفي الأمام، فوق الشجيرات اليافعة، النامية في المرج المغمور، اخضوضرت أجمة

---

(١) فيرستا: وحدة قياس مسافات روسية تعادل ١٠٦٠م. / المترجم.

صنوبرية فوق الرابية، فأبطأ السير. وقد ذهل للمنظر الذي تكشف له على حين غرة. فعلى التلة تسامت مجموعة من أشجار الصنوبر العالية المعمرة، فتطالعك من بعيد، ومن تحتها يمتد الطريق، الذي طالما سلكه، قاصداً المحطة أو البلدة - لشراء الحاجيات، إلى البازار، وهو ينقل الضريبة العينية، أو لتقديم التماس إلى المسؤولين، لكن كل تلك الالتماسات لم تجد نفعاً، فقد اضطر لدفع الضرائب كاملة، إلى أن فرضت الضرائب الثابتة، عندها نضبت إمكانياته...

بدت التبة وكأنها لم تتغير خلال السنوات الأخيرة. فالخضرة اليانعة لأشجار الصنوبر تبرز في منتهى الأناقة بين شجيرات الخريف الرمادية. لقد بدا وكأن الصنوبرات يقرئنه التحية من ذلك اليوم الحزين، الذي ودعهن فيه، وهو في طريقه إلى المحطة. استولت على هويدور رغبة عارمة في أن يعرج على التلة المعروفة، أن يتسلق منحدرها، ويتنشق أريج صنوبرها الصمغي، ويلامس بيديه جذوع الأشجار الخشنة. لكنه لم ينصع لها. كان ذلك قريباً ومنشوداً، ولكن... كانت ثمة أمكنة أخرى معروفة في الأمام بانتظاره أيضاً، وهناك، خلف التبة على الطريق، يمكن أن يصادف أحداً من أصحابه، معارفه، أبناء قريته. وكان أكثر ما يخشاه الآن أن يلتقي أياً من هؤلاء.

أجل هذا ما آلت إليه حياته - لقد اقتلعه قدره الملعون من مسقط رأسه، حيث الأمكنة الحبيبة، ورمى به في أماكن أخرى، لم يسمع بها من قبل. مرتين خلال العام الأخير حاول الهرب من هناك، لكنه فشل في كلتيهما، ولم يكتب له النجاح.

أما الآن فقد حالفه الحظ، وذلك في اللحظة التي بدا فيها وكأن آماله تلاشت نهائياً، وكان يوشك أن يستسلم لقدره. أمن المعقول حقاً أنه لن

يلبث أن يرى ركنه الحبيب، أرضه السابقة، أسطح قريته «نيداليشِّي»، ذات الأراضي العجفاء، والمراتع المستنقعية، وحرش الحور الرومي الكثيف، قرب الجدول؟ هاهنا ولد، وهاهنا انصرمت سنوات شبابه، وتألق المستقبل حلواً في سراب الأمل...

كان لا بدَّ، لتجاوز التلة، من المرور عبر وهدة ضيقة، نمت فيها أجمة كثيفة، والوصول إلى الجانب الآخر من الطريق، فهنا، على هذا الجانب، وعلى طول الجدول، يبدأ المستنقع المملوء بالماء، والذي لا مجال لعبوره الآن. إنه يعرف المكان جيداً، ولا داعيَ للسؤال عن الطريق. وهو نادراً ما كان يستفسر من أحد، إلا من صغار الرعاة في الحقل. وفي ذات مرة أوقف امرأة، وهي تحمل الحطب إلى القرية، لكن لم يسبق له أبداً أن سأل الرجال أو الشباب، فهو يعرف أنهم لن يتورعوا عن الإمساك به، وتسليمه للشرطة. لم يكن يعلق الأمل على الشباب، فشباب اليوم هم من الكمسمول، الذين تربوا على كراهية أي غريب، والشك فيه، فما بالك به هو، المعروف للقاصي والداني.

لقد نجح في قطع الطريق عدواً، دون أن يراه أحد. وتحت ستار حرش الحور الرومي، وصل إلى طرف حرش الصنوبر. كان ذلك نهاية الغابة الأميرية الضخمة، كان سكان الأرياف يحصلون منها على الأخشاب لبناء مساكنهم. ولقد قام هو نفسه بنشر أشجار الصنوبر لبناء كوخه، عندما حصل، بعد الثورة، على حصته من الأرض، من المجلس الريفي - اثنتي عشرة ديسياتينا[1].

---

(١) وحدة قياس المساحة في روسيا قديماً، وتعادل ١,٤٥ هكتار / المترجم.

وُزِّعَ بمعدل اثنتي ديسياتينا لكل فرد، وكان عدد نفوس أسرته آنذاك ستة: هو وزوجته غانا، ثم العجوزان، والصبي ميكولكا، والصغيرة أوليتشكا، التي رزقا بها ذلك العام. وهكذا فقد أصبح، وهو الأجير، أباً عن جد، والذي لا يملك من الأرض إلا النزر اليسير، أصبح، مالكاً لأرض زراعية، حصل عليها في أملاك البان(١) عند الغابة. زغردت روحه من فرط السعادة، وبدا له الكون جنة وارفة. بنى بيتاً، وجرناً وحظائر، واقتنى المواشي.

كان الوضع في غاية الصعوبة، وقد ظن أن العمل سيودي بحياته، لكنه كان شاباً قوياً، فنجا، وفيما بعد أصبح يعيش حياة ليست بالسيئة إجمالاً.

هناك في مكان ما، على الجانب الآخر من الغابة، بين الأدغال، كان يختبئ ممر قديم، لكنه لم يبحث عنه، وتابع بخط مستقيم. كان مرهقاً، جائعاً، مبلل القدمين، ومع هذا لم يستطع التغلب على نفاد صبره المحموم، وظل مندفعاً نحو الأمام، دون أن يميز الطريق. وفي بعض الأحيان، وقد كاد ينسى الحذر، كان يندفع بين الدغلات والأجمات بصخب، فيدوس على أغصان الصنوبر اليابسة. اجتاز أجمة ضيقة من شجيرات البتولا، النامية بين أشجار الصنوبر، ووصل إلى رقعة شبه مكشوفة، تنتشر فيها الجذامير القديمة. يبدو أنها تلك الرقعة نفسها، التي سبق أن قام فيها مع عديله توماش في الشتاء بنشر الأخشاب اللازمة لبناء كوخه. حينئذٍ أوقد ميكولكا، وكان آنذاك مراهقاً، النار في الجوار، وأقبل على تقطيع الأغصان. أما الآن فلم تكن هذه الرقعة تهمه كثيراً، فقد استحوذ قرب الهدف المنشود على كيانه بالكامل.

---

(١) البان: الإقطاعي، صاحب الأطيان مثل الآغا عند الأتراك / المترجم.

مئات الأمتار الأخيرة قطعها جرياً، عبر ممر حرجي شبه مغطى بالنباتات. الآن لم يعد قادراً على السير بهدوء، كل ما فيه توتر، بسبب نفاد صبره. فعما قريب سيطالعه طرف الغابة، ومن هناك سيرى الحقل وداره المتيتمة. كان يدرك أن من المستبعد أن تكون الدار خالية، ولا شك أن أحداً ما لا بدَّ قد شغلها، حتى إنه يمكن أن يكون من أبناء قريته، من معارفه. لكن المهم أن يرى بأسرع ما يمكن سطحها، المغطى بالشرائح الخشبية ومدخنتها المبنية من الآجر الأحمر، والمساكب تحت النوافذ، التي كانت ملأى بالداليا الخريفية البراقة، وأشجار التفاح في الحديقة فوق البركة، كان قد طعمها، وهي لا تزال شجيرات صغيرة رقيقة، أما الآن فهي على الأرجح مثقلة بالثمار...

خرج إلى طرف الغابة، بالقرب من شجرة الكمثري العتيقة المجوفة؛ التي يذكرها منذ الطفولة، كان العشب المدعوك تحتها مزداناً بالثمار المتساقطة. من الواضح أن أحداً لم يكن يجمعها هنا، فكانت تتعفن على الأرض. أما على الشجرة فكان عددها كبيراً، بيضاء تتناثر بين الأوراق النادرة. ومن هنا، من طرف الغابة، بدا واضحاً الفضاء الرحب للحقل المحروث[1]. سار هويدور ببطء على طول طرف الغابة، وهو لا يزال يتمعن في فضاء الحقل، حيث تقع أرضه المتيتمة. ولم تلبث أن ظهرت في البعيد البيوتات، الواقعة على أطراف القرية نيدوليشي، وأسطح العنابر والحدائق وأسلاك البساتين المطلة على المراعي. وفي البعيد، كان ثمة امرأة في منديل أحمر، منحنية، وهي تنكش الأرض - لا بدَّ أنها إحدى النسوة من عائلة أنتوسيف، وهي تقلع البطاطا. لكن أين الدار؟ أين البيت والجرن، وأين ملحقات الحوش؟ على الأرض المحروثة، المائلة قليلاً عن

(١) تحرث الأرض خريفاً، لكي تزرع في الربيع / المترجم.

الغابة، والمخضوضرة قليلاً بالزراعات الخريفية، كانت تتحرك مع الريح عدة شجيرات مثمرة، ولم يكن ثمة أي بناء في الجوار. كان الحقل العاري ينداح في كل مكان - من الغابة حتى البركة نفسها في الأسفل.

مشى هويدور متثاقلاً عبر طرف الغابة، وهو يجرجر قدميه بين الأعشاب الطفيلية. فقد تناقصت قواه بسرعة، وأصبحت خطواته أكثر بطئاً، ثم توقف، وبعد أن وقف قليلاً، هوى على الأرض عاجزاً.

ها قد وصل أخيراً، بعد ثلاثة أشهر من السير والجري والمعاناة والصبر... لكن ما الأمل الذي كان يحدوه؟ ما الذي كان يرومه؟ على ماذا كان يعتمد؟ قبل كل شيء أن يرى... طيب، ها قد رأى... أكان أحد بانتظاره؟ هل كان أحد ما ملزماً بالسهر على داره المهملة؟ على الأرجح أنها نقلت إلى مكان آخر، ومنذ عهد بعيد آوت إليها الناس الطيبين - الأولاد والشيوخ، وهم على الأرجح أكثر منه سعادة. والأرض؟... الأرض لا تزال على حالها، لا بل إنها اخضوضرت بمرح بزراعاتها الخريفية، وهي على ما يبدو زراعات ليست بالسيئة. فقط في ذلك الطرف، قرب البركة، أصبحت داكنة، نتيجة الرطوبة، وهذه البقعة كانت رطبة دائماً، عندما كان يزرعها هو بنفسه. فكان يحاول أن يزرعها بالبطاطا، مرتين فقط زرعها بالقنب، أما الحبوب فلم تكن تنمو عند البركة، ولما كان أصحابها الجدد لا يعرفون ذلك، على الأرجح، فقد زرعوها شعيراً.

لفترة طويلة ظل جالساً محطماً، عاجزاً في النهاية، وهو يتمعن بكآبة في الحقل والقرية، اللذين لم يرهما منذ عهد بعيد. كانا يراودانه في الأحلام كل ليلة، حين كانا نائيين، بعيدي المنال - وها هما الآن قريبان - في متناول اليد. من حوله بدأ الغسق المبكر يتكاثف على عجل، ومن الغابة بدأ يزحف

ضجيج الصنوبريات الكثيف، وفي الأعالي كانت تطير الغيوم الماطرة، التي مزقتها الريح. لم يكن ثمة أحد في الحقل، أو بجوار القرية، لكن وجود الناس كان محسوساً بشكل غير واضح في القرية - في الجنائن والأفنية، خلف الأسيجة والأسوار. ومن خلف الأكواخ المتطرفة ظهرت على الطريق عربة وشاب - كان الشاب يستعجل الفرس الكميت، فيسوطها وهو واقف... لم تلبث العربة أن اختفت في الوهدة، وقد تلاشت قرقعتها في البعيد. لم يتمكن هويدور من معرفة الشاب، على الرغم من أنه كان في السابق يعرف كل شخص هنا، من الكبير إلى الصغير. لكن على الأرجح أن الشيوخ، خلال السنوات المنصرمة، رحلوا إلى العالم الآخر، وأن الصغار كبروا، مما جعل من الصعب التعرف عليهم، خاصة من بعيد. لكن لا قدر الله أن يتعرفوا هم عليه، أو حتى أن يروه في الحقل. وإذ انتبه إلى أنه ظاهر للعيان من القرية، زحف قليلاً نحو الحشائش. وشيئاً فشيئاً بدأت الإثارة تتناقص، وأصبح الآن يتفحص الحقل المألوف بشكل أهدأ - فراخ الزراعات الخريفية، الشجيرات النادرة المتوحدة، في تلك الأماكن، حيث كانت تقوم التخوم في الزمن الغابر، وحيث كانت أجمة في الوهدة قرب المستنقع. وفي الطرف النائي من القرية ترتفع تلة عالية، مغطاة بدغله صغيرة من أشجار الصنوبر، وتحت هذه الأشجار ظهر شيء ما، يبدو أبيض خافتاً. إنها مقبرة القرية القديمة، حيث يرقد جميع أهل هويدور - أجداده وأجداد أجداده، كل شجرة العائلة، الذين رحلوا، كما الكثير من الأسر الريفية، بعد أن ذاقوا الأمرين على هذه الأرض. وخطر لهويدور: إنهم يحسدون على نصيبهم، فهم، بعد الموت، باقون مع ذويهم، تضم أرضهم الأم رفاتهم، على حين ترقد زوجته البائسة غانوليا في مستنقع متجمد، في ضواحي كاتلاس

الباردة، على بعد ألف فيرستا من هنا. من كان يتوقع لها هذه القسمة؟ إنهم لم يسمعوا في السابق بهذه التسمية الغريبة، التي أصبحت قدر غانوليا، وقدره هو أيضاً...

كان هويدور لا يزال جالساً على الحاشية بين الشجيرات، يتمعن في البعد النائي، وهو يستقبل المساء. دبت البرودة في قدميه المبللتين، ثم إنه هو نفسه أصبح يشعر بالبرد - فمع حلول المساء أصبح الجو بارداً بشكل ملحوظ. أما في القرية فالحياة الريفية تجري على قدم وساق. لقد عاد الناس من الحقول، وساقوا المواشي إلى الزرائب، وانصرفوا إلى أمورهم المنزلية العادية. وعلى الدرب، المؤدي إلى البئر، ظهرت امرأة تحمل نبوتاً[1]. وبعد أن ملأت دلويها، تلفتت، ووقفت قليلاً، ثم دبت نحو الزرائب، حاملة الماء، وهي تمشي بصعوبة. وفي الأكواخ أوقدت المدافئ، فحملت الريح لفائف الدخان الممزقة. كان هويدور يحدق بنهمٍ في الحقول المجاورة والقرية، لكن أكثر ما شده هو ذلك المكان، حيث كان يقوم كوخه فقد بدا وكأن ثمة أثراً من البناء غير واضح، لا يزال باقياً، حذاء أشجار التفاح الناجية، فلم يمح كل شيء. كانت الحشائش الطفيلية تبدو قاتمةً. ثمة شيء ما كان مكوماً هناك - هل هو حيث كان الأساس يا ترى؟ ينبغي أن يدنو من المكان، ويلقي نظرة، أن تطأ قدماه الأرض، التي سبق لها أن وعدته بالكثير من الفرح، والتي لم تعطه سوى المصائب والمحن. لكن الليل لم يرخِ سدوله بعد، وقد يراه أحد، ولا بدَّ من الانتظار قليلاً، فراح ينتظر صابراً. وحين تجلببت الأكواخ القروية

---

(١) نبوت: قطعة خشبية، توضع على العنق من الخلف، كما يوضع النير، ويتدلى منها ذراعان طويلتان، يعلق على كل منهما دلو. /المترجم.

بغبش المساء، وأصبح من الصعب رؤية شيء من الحقل، نهض، وسار ناحية الشجيرات، وهو يتمايل.

وكما توقع، فلم يكن حوش الدار محروثاً، وظل الصحن سليماً، لم يمسه أحد، وكذلك الأساسات، وفي أماكنها السابقة ظلت قائمة أحجار زوايا العنبر. كانت أحجار العنبر صخوراً ضخمة، خاصة تلك الواقعة تحت الركن السفلي للبناء. كان قد جلبها من غورانيا، بالتعاون مع توماش، وقد وجدَ صعوبة بالغة في وضعها في العربة. وحتى الآن لا تزال هذه الصخرة تطل من نبات القراص بجانبها الأملس. كان أساس البيت قد تفتت في بعض الأماكن، وتغطى بالحشائش الطفيلية، ولم تعد درجات المدخل موجودة، على الأرجح أنها نقلت مع البيت إلى المكان الجديد. وهناك، حيث كان يقوم الفرن، تكومت عرمة من الآجر، المغطى بالبطم، ذلكم كل ما بقي منه. وهذا مفهوم: فقد كان آجر الفرن رديئاً، لم يشوَ بشكل جيد، إذ لم يعثر في ذلك الخريف على ما هو أفضل. فقد كان معمل الآجر يعاني نقص الوقود، وقيل لهويدور إن هذا الآجر يصلح لبناء الفرن. وبالفعل فقد ظل الفرن قائماً ما يقرب من ثماني سنوات، وإن كان قد اضطر إلى تجديد المدخنة، حيث اشترى من البلدة ما يقرب من مئة طوبة، ذات قالب قديم، من العهد القيصري. كم شعر بالمرارة الآن، وهو يتجول بين أطلال بيته، كان قلبه يكاد ينفطر حزناً. الشيء الوحيد الذي أثلج صدره هو الحديقة، بأشجارها الفتية، التي نمت وأينعت، وها هي ترفرف بأوراقها مرحة. في العام الثالث من سكناه هنا، طعم ثلاث أشجار من نوع أنطونوفكا، وبعد عام آخر طعم شجرتي كمثري. أما شتلات الآس الأسود فقد حصل عليها في بلدة فارينوف، من أحد المدرسين في

المحطة. لكن التطعيم الأول لم ينجح، فطعمها في الخريف، من جديد. طاف هويدور على الشجيرات، وراح يلامس جذوعها المتينة القوية، كمن يسلم على كلٍّ منها. لقد خيم الظلام، وشعر بالرغبة في تذوق التفاح - ربما بقي بعض منه على الأغصان؟ راح يتفحص الأوراق الداكنة، ويلامس الأغصان السفلى، ثم هز الشجرة المتطرفة. لكن شيئاً لم يتحرك، ولم يسقط على الأرض. أتراهم جنوا المحصول كله؟... رأى هويدور على الشجرة غصناً مكسوراً، لا يزال معلقاً، وآخر في العشب عند قدميه. حينئذٍ أدرك أنه لا تفاح هنا، منذ عهد بعيد. ومن أين له أن يكون في هذه الحديقة، وسط الحقل العاري، المهمل، حيث لا أحد يسهر عليه. فأشجار التفاح، مثلها مثل الأزهار، لا يمكن أن تنمو دون الملاطفة البشرية.

طاف هويدور على ما كان داره. في المكان الذي سبق له أن حفر البئر فغرت فاها حفرة سوداء، أحاط بها القراص من كل حدب وصوب، أما خرزة البئر والبوابة، فلم يبق منهما أثر. وهناك، حيث كان يقوم بتقطيع الحطب، لم يبق إلا عدة عيدان، مبعثرة على العشب، أما الحطب فلم يعد موجوداً. وقف قليلاً على كومة الطوب المحطم في الحشائش، وعادت به الذاكرة إلى تلك الأيام التي كان يتدفأ فيها هنا، على الفرن، بعد عودته من الغابة شتاءً، أو من الحقل خريفاً، وكيف كان العجوزان ينامان هاهنا، وحتى زوجته غانوليا، كانت تتدفأ هنا أحياناً. علماً أن غانوليا المسكينة لم تكن تتدفأ إلا فيما ندر. كان جل وقتها مكرساً لشؤون البيت. فقد كانت تسعى جاهدة من أجل إطعام الأسرة، التي لم تكن صغيرة آنذاك، وتحمل قدور العلف الثقيلة للماشية. لم يكن لدى غانوليا دقيقة واحدة للدفء في البيت، ولن تجد الدفء أبداً، بعد الآن، في تلك الأرض

المتجمدة هناك، على أطراف المقبرة المستنقعية. لم يعمر مرضها طويلاً. وقبل أن ترقد مريضة، كانت قد عملت منذ الخريف في تقطيع الأشجار، إذ كانت تقوم مع مجموعة من مثيلاتها المهجرات بجمع الأغصان وحرقها. والواقع أن المرض ألم بها منذ عيد بوكروف[1]، منذ نهاية الخريف. ففي الشتاء غالباً ما كان يلم بها سعال قوي ليلاً، وتشكو من ألم في خاصرتها. لكنها لم تراجع الأطباء - كانت تخاف الأطباء، كما تخاف الرئاسة، فتحاول ألا تقع أعينهم عليها، قدر المستطاع. على أنها لم تلبث أن تحسنت، كما بدا للوهلة الأولى، بفضل تعاويذ باناديسيخا، وهي امرأة عجوز مشاكسة، جاءت منفية من نواحي بلدة أورشا. لكن هذا التحسن لم يستمر طويلاً. ففي خميس الطهارة عادت غوليانكا من العمل، وهي لم تَكَدْ تجرجر قدميها، وأوت إلى الفراش، وبعدها لم تنهض أبداً. لم يكن بمقدور هويدور أن يسهر عليها، فقد كان يساق إلى الغابة يومياً، استعداداً لنقل الأخشاب عبر النهر ربيعاً. كان لا بدَّ من جمع كمية كبيرة من الأخشاب. ولم يكن رئيس القطاع يسمح لهم بالتقاط أنفاسهم. فكانت الزمر تعمل في الغابة من الشفق حتى الغسق. وبقلب منفطر ترك زوجته لعناية ابنته، أوليتشكا، التي كانت تمضي نهاراتها، تارة تبكي، وتارة تغني لأمها بصوت رقيق أغنيتها المفضلة «يا بطة». وعلى الأرجح أن غانولكا رحلت عن هذا العالم على وقع هذه الأغنية الحزينة. وحين عاد في المساء يجرجر قدميه، ودخل البراكة، قالت له أوليتشكا الهادئة: «أمي نائمة». فاندفع نحو السرير، حيث ترقد غانولكا، وقلبها وناداها، لكن عبثاً - لقد كانت غانوليا ميتة. انخرطا في البكاء معاً، أوليا بصوت عالٍ، أما هو فكاد يختنق بدموعه بصمت، ألماً وحسرة.

---

(1) بوكروف: عيد مسيحي يصادف ١٤ تشرين الأول، وهو عيد العذراء. / المترجم

في اليوم التالي أعفوه من العمل، ودون أن يخفي امتعاضه، قال له المشرف: لديك نصف يوم. وخلال نصف اليوم هذا كان ينبغي حفر القبر، وصنع التابوت، ونقله إلى المقبرة خلف القرية. كانت المقبرة جديدة، منذ عهد قريب خصصت رقعة من الوهدة لتكون مقبرة، ومع هذا فإن عدد الصلبان فيها ليس بالقليل. كان المنفيون، ولا سيَّما المعمرون منهم، يموتون بكثرة في هذه البرية الباردة. وإجمالاً فقد كان الموت يطال الشباب أيضاً - بسبب الجوع والعمل القاسي - والسل الرئوي، الذي كان يفتك حتى بالشباب الأقوياء. كان الناس يقولون إنهم يموتون من الأمراض، لكن أكثرهم كان يموت حنيناً إلى الأرض الأم، ومن التفكير أنه فارقها إلى الأبد. ربما يكون ذلك صحيحاً.

كان الربيع آنذاك يقترب، وعلى الروابي بدأ الثلج بالذوبان، وإن كان في المنخفضات، خلف القرية، لا يزال يغطي الأرض بطبقة سميكة وصلبة.

أمضى هويدور لا أقل من ساعة يقشر الأرض المتجمدة بالرفش، بعدها راح يحفرها بالكايلا[1]، أخيراً - حفر قبراً صغيراً، لا يزيد عمقه على ارتفاع الخصر، فلم يكن لديه لا القوة ولا الوقت ليحفر قبراً أعمق، كان يخاف كثيراً أن يتأخر، وألَّا ينتهي قبل الظهيرة. بعد ذلك ألقى بالرفش والكايلا، وأسرع يصنع التابوت. كان يتقن النجارة، فمنذ الصغر، تعلم استخدام أدوات النجارة البسيطة، لكن لا بدَّ من تأمين الألواح الخشبية. أمضى أمين المستودع، الذي اندفع هويدور إلى مكتبه، فترة طويلة يقلب الأوراق بصمت، بينما ظل هويدور واقفاً لدى العتبة صامتاً، ينتظر الجواب بصبر. أخيراً نهض أمين المستودع، لم يكن على عجل من أمره. أشعل سيجارة، وعلى مضض اتجه نحو

(١) الكايلا: Keil أداة تفتيت يدوية. / المترجم

الحوش، حيث تكدست الألواح. كان ثمة عدة أكوام، وقد غطاها الثلج - السميكة والرقيقة، من ذوات العشرين والأربعين، ومن القياسات الأخرى. لكن هذا الإنسان المتجهم أشار نحو الألواح المحدبة، البارزة من بين الثلج، وقال من بين أسنانه: «اسحب من هذه، خمسة ألواح لا أكثر». أزاح هويدور الثلج بقدميه، ثم سحب خمسة ألواح، كثيرة العقد، محدبة وغير مشذبة، راح يسحبها كازاً على أسنانه باتجاه البراكة، وانكب على صنع التابوت. شعر برغبة في البكاء من شدة قهره، وهو ينظر إلى هذا التابوت، الذي سيضم رفات زوجته غانولكا، لكن ماذا بوسعه أن يفعل... ما الذي كان يقدر عليه في عبودية الأشغال الشاقة؟

كانت باناديسيخا وحدها التي شاركته في الدفن، ولم يسمحوا لأحد غيرها بمساعدته. وجدَ صعوبة كلبرة في وضع التابوت المتجمد فوق الزحافة، المخصصة لنقل الماء. أخذت باناديسيخا مكانها على الجانب برفقة أوليتشكا، أما هو المرهق المنهك، فقد راح يجر الفرس العجوز العمشاء، ولحسن الحظ أن المكان لم يكن بعيداً. كانت باناديسيخيا تتمتم بالصلاة، وهي في الزحافة، أما هويدور فكان يفكر بحزن أن عليه هو أيضاً أن يستعجل بدوره.. لم يعد قادراً على الحياة على هذا المنوال. الموت أفضل، ولولا أوليا، لكان قد مات على الأرجح. كانت الصغيرة قد دخلت عامها العاشر، وقد كانت طفلة ذكية (ممن ورثت ذلك يا ترى؟) جدية، لا تبتسم أبداً، لا تكف ترنو وترنو بعينين مفتوحتين على مصراعيهما، لكأنها تنتظر شيئاً. فكان يفكر بينه وبين نفسه: لعلها هي الأقل ستنال شيئاً ما أفضل. كان يتوق إلى ذلك كثيراً، لكن آماله ذهبت أدراج الرياح، ويبدو أن قدر أوليا هي الأخرى لم يكن أفضل...

لكنه الآن يقف حائراً، لا يدري ماذا يفعل. لقد استبدت به الحيرة في هذه الأمسية الباردة، في هذه الدار الدارسة، وقد نسي فجأة كل ما كان يتوق إليه قبل ذلك. المهم أنه فقد الهدف، الذي قاده أسابيع طويلة، عبر العوائق والمحن، إلى الديار، إلى داره. أما ما الذي ينتظره هنا، هذا ما لم يفكر به على الأرجح، كان المهم بالنسبة له أن يصل: سيراً، زحفاً، أن يلقي، ولو نظرة واحدة، على هذه الأماكن، وبعدها مرحباً بالموت. كان العثور على الراحة الأبدية هنا، في مسقط رأسه، قمة السعادة، التي يحلم بها.

لكن ما العمل الآن، ما دام حياً، وأنى يذهب؟ لم يكن يجرؤ على دخول القرية، خوفاً من جر البلاء على الآخرين، ثم إنه يخاف على نفسه من الشرطة. وما دام أحد من القرويين لم يره، فهو حر طليق، ما زالت الحرية هدفه الوحيد. أما إذا ما رأوه وعرفوه، فحينها ينتهي كل شيء بالنسبة إليه، ومن جديد يحل ما هو أسوأ من الهلاك. إذن فليكن الموت، فهو الآن يأتيه في مسقط رأسه.

خيمت الظلمة تماماً، وهبت ريح قارسة، فشعر هويدور بالبرد، وراح يرتعش بكل كيانه. لم يكن ثمة من مكان هنا يحتمي فيه. لو أنهم أبقوا على زريبة صغيرة، أو سقيفة، حتى ولو على الجحر، حيث كان يعيش جروهم اللطيف لوباتيك، الذي جلبه إلى الدسكرة قبيل نفيه. لكنهم لم يتركوا شيئاً، مجرد عراء وخراب. وفي الوقت نفسه لا مكان يذهب إليه، فبقي حيث هو. لفترة طويلة ظل يتسكع في بقايا داره، وهو يتفحص أعشاب الفجل البري والقراص، ثم صعد إلى بقايا الفرن، وبعد أن وقف قليلاً، جلس على كومة الطوب، فقد شعر بالألم في ساقيه، ولم يعد قادراً على الوقوف. جلس، وراح يفكر، بالسنوات المنصرمة والمشاغل القديمة، بأحلامه الحمقاء التي لم تتحقق، بغانولا. تذكر كيف وضعا، لدى بناء البيت، روبلاً قيصرياً في الركن الأساسي وقطعتين

مربوطتين من ثيابهما، عسى أن يرزقا في هذا البيت، ويعيشا في وئام، وألَّا يدب الخلاف بينهما، ولا يفترق بعضهما عن بعضٍ. وهذا ما حدث فعلاً، فهما لم يفترقا حتى وافتها المنية. كانت امرأة صالحة، هادئة وشغيلة. إن هويدور لا يذكر أن الخلاف الجدي دب بينهما أبداً، على الرغم من أن حياتها كانت غنية بهذا وذاك، لكن أغلبها كان سيئاً وصعباً. لكن هل كان ذلك ذنبهما؟ ذلك كان نصيبهما في هذه الحياة، التي لم تعط من السعادة إلا النزر اليسير، لكنها سخت عليهما بالعمل والمخاوف والمصائب. فكان يفكر: سوف يتحملان كل شيء، عسى ان تكون حياة الأولاد أسهل، على كل حال أصبح لديهم أرض، ولن يعودوا أجراء. وبالفعل فإن ابنه ميكولكا شرع، وهو لا يزال في سن المراهقة، يعمل مع أبيه، جنباً إلى جنب. كان شاباً مكتنز الجسم، عريض المنكبين ذا طبع عنيد، لكنه كان دمثاً وديعاً. كان ماهراً في شق الأثلام بالمحراث الأزرق الجديد، وإبان حصاد الحشائش كان يسير في عداد كبار الرجال، لكنه لم يلبث أن راح يبتعد عن أعمال الحقل، شيئاً فشيئاً، أولاً في المدرسة، ومن ثم ما إن انتسب إلى منظمة الشبيبة، حيث بدأت في القرية اللقاءات والاجتماعات والنقاشات. وحين شكلت الخلية عينوه أميناً لها، فلم يعد يهتم بأمور الحقل... وإجمالاً فإن أباه لم يعارض، وفكر: ليكن، عسى أن ينطلق، وأن يكسب رزقه، ومهما يكن، فإن بوسعه أن يشق طريقه بنفسه. أما هو فبوسعه بطريقة ما أن يعمل بدون مساعد. وبالطبع فإن الوضع في المزرعة لم يتحسن، ولا سيَّما عندما انتقل الصبي إلى المنطقة، ونسي الطريق إلى نيدوليشي نهائياً.

لا شك أن ميكولكا الشاب الفطن، المتعلم، ليس بند لأبيه، أما تخليه عن أمور المزرعة، فربما يكون ذلك أفضل. فهنا على الأرجح تكمن نجاته، وإلا أين كان سيجد نفسه الآن؟ أفي كوتلاس، أم أبعد منها؟ لكنه أصبح رئيساً،

يتمتع بالتقدير والاحترام. لم يكتب هويدور لأحد من المنفى. مرة واحدة فقط بعث برسالة لعديله توماس، كان ذلك وغانولكا على قيد الحياة، وبعد نصف عام تلقى الجواب. لم يكتب توماس شيئاً عن حياته، ولم يأت على ذكر الأحوال في المنطقة، ولكنه كتب قليلاً عن صحتهم، وفي الختام ذكر الخبر الأهم، على الأرجح: عاد ميكولكا من الخدمة في الجيش الأحمر، ويشغل الآن منصب رئيس كبير في المنطقة. وللمرة الأولى خلال السنوات الأخيرة افتر ثغر غانولكا عن ابتسامة، وللحظة أشرق وجه أوليا الحزين، أما هو فقد عبس. كان فرحاً لكن القلق يقض مضجعه، ليس عادياً أن يشق ابن الكولاك[1]، المنزوع الملكية، طريقه إلى سدة الرئاسة. وإذا ما اكتشفوا ذلك؟

أمضى هويدور الليل بطوله يفكر بابنه الرئيس ومنصبه، وهو نهب للخوف والقلق. لكن ستالين يقول إن الولد لا يؤخذ بجريرة أبيه. هذا ما قرأه في الجريدة، وما سمعه من الآخرين، أكثر من مرة. هذا يعني أن ما قاله ستالين صحيح. ما داموا قلدوا ميكولكا منصباً في المنطقة، فهذا يعني أنه كان عليهم أن يعرفوا أين والده، ومن أية أسرة هو، وربما توصلوا إلى الحقيقة، وأدركوا أنهم نزعوا ملكية أبيه خطأً، ولذا فإن ابنه بريء، ولا سيَّما أنه منذ عهد بعيد لا يعيش مع والديه، ولا يعمل في أرض أبيه، بل في لجنة المنطقة، ومن ثم في الجيش الأحمر، حتى إنه كان قائداً، فما ذنبه إذن؟

ومع هذا لم يكتب هويدور لابنه أبداً، لم يستطع أن يتغلب على الخوف والريبة، على الرغم من أن غانولكا توسلت إليه كثيراً أن يفعل، حتى إنها

---

(١) الفلاح الموسر، الذي يستثمر عمل غيره / المترجم

ذرفت الكثير من الدموع ذات مرة. كان يخاف، ليس على نفسه بالطبع، بل على ابنه. وفكر إذا كان الخطر غير موجود البتة، فإن ميكولكا سيكتب بنفسه. لقد كتب توماس أنه رآه في مركز المنطقة، وكان بوسعه أن يسأله عن عنوان أهله في المنفى. وطالما أنه لا يكتب... فهذا يعني أن شيئاً ما ليس على ما يرام.

ومع هذا فهو لم يرغب في أن يفكر بما هو سيئ، وظل متشبثاً بالأمل. وحينما قرر الهروب الأخير، وقبل ذلك، وفي الطريق المخيف - على الأطواف، وعلى أرصفة السكك الحديدية، وبين أكوام الأخشاب، وفي تطوافه الطويل عبر الغابات والدروب الزراعية، كان شغله الشاغل، آناء الليل وأطراف النهار، التفكير والشكوك، ومع هذا لم يتوصل إلى قرار، لم يكن يعرف ما الموقف الذي يجب أن يتبناه تجاه ابنه، والأهم - ما هو موقف ابنه منه.

والواقع أن بوسع ابنه أن يفعل شيئاً، طالما أنه رئيس كبير... فالرؤساء يخولون الكثير. فما هو محظور على الإنسان العادي، تراه مسموحاً للرئاسة، هذا ما كان هويدور يعرفه جيداً. فقد رأى الكثير من الشواهد على ذلك في العهد القيصري، وفي الجيش، وفي عهد السلطة الجديدة أيضاً.

سيطر الليل الخريفي على الحقول والغابة، دون منازع، وفي البعيد تجلببت القرية كلها في عباءة الظلمة الدامسة، وغمرها السكون المطبق. في البداية تراءى زوج من الأضواء، في ذلك الطرف من الشارع، لكنه لم يلبث أن انطفأ. نهض هويدور على قدميه. على حين غرة قرر السير عبر شارع القرية، تحت جنح الظلام، والنظر إلى البيوتات المعروفة، وإلى إدارة الكلخوز، التي كان ينتصب بجوارها، فوق الطريق قوس عريضة، تحمل شعاراً أحمر، حائل اللون. هنا في كل مكان يعيش أناس يعرفهم، فيهم الشيوخ والشباب،

المتحمسون للعمل والمتقاعسون، الأخيار والأشرار وغير المهتمين - إنهم أبناء قريته سابقاً. إنه لم ير أيا منهم منذ ذلك الصباح الآذاري، حين غادر القرية في الزحافة، وهو لا يكف يتلفت - إلى أن وصل الوهدة، حيث لم يعد بمقدوره أن يرى شيئاً. وخلفه كانت نساء القرية قد تجمعن تحت الصفصافة الكثيرة الأغصان، قرب دار سافتشيك، وهن يلاحقنه بأنظارهن، ويذرفن الدموع.

يبدو أن الدرب القديم من الدار إلى الشارع لم يعد موجوداً، فقد غطته الأعشاب، ولذا فقد سار بخط مستقيم إلى أن وصل الطريق. وفي المكان المعتاد هبط من الطريق الزراعي القذر والمحطم، هبط إلى وهدة، ذات جسر عتيق في قاعها. وكما لسنوات عديدة خلت، كان الجسر على وشك السقوط، وكان يقرقع بصخب تحت عجلات العربات الكبيرة والصغيرة. كان الشارع يمتد خلف الوهدة مباشرة. بدت الصفصافة الهرمة وكأنها يبست، لكنها كانت لا تزال تنحني فوق الطريق، ومن خلفها بدت سوداء في الظلمة دار سافتشيك، الهرمة مثلها. هل يعيش سافتشيك فيها يا ترى. لم يكن هويدور يعرف ذلك، فخلال السنوات الخمس، التي أمضاها في المنفى، لم يكتب له أحد من هذه القرية، ثم إنه هو نفسه لم يكتب لأحد، ولم يكن يعرف شيئاً عن أي منهم. علماً أنه كان قد درس مع ليوكسا سافتشيك في مدرسة الأبرشية، في صف واحد، ومن ثم التحقا بالجيش معاً. كان ليوكسا رجلاً هادئاً حصيفاً، فقيراً مسكيناً، كما الجميع في هذه القرية، على الأرجح. وكان لديه خمس بنات. أين هو الآن يا ترى؟

كان الشارع في الليل يرقد أسود خاوياً، مغطى بالتراب، الذي داسته القطعان، وثمة أجمات راعي الحمام لدى الأسيجة. دار هويدور حول كومة

من الأخشاب الجديدة لدى دار أفدوتينا، هل تبني الأرملة بيتاً؟ لكن لماذا الأرملة؟ لقد كبر أبناؤها على الأرجح، وربما تزوج أحدهم، لذلك فهو يبني. بكل هدوء مر بالقرب من جنينة ظيركاش، ولم يكن يرغب في التفكير به الآن، فقد شوه هذا الظيركاش حياته (وليس حياته وحده). كان إنساناً حسوداً، عديم الشفقة. فقد سبق له أن قدم ضد هويدور شكوى إلى المنطقة بشأن الدراسة، التي بدأ منها كل شيء، ومن يدري فربما كان كل شيء قد مر بسلام، لولا هذه الشكوى، ولما كان هويدور يتسلل الآن كما اللص تحت جنح الظلام، ولعاش مع الجميع، ولما عانى من المصائب والأرزاء، التي خصه بها قدره المشؤوم بسخاء.

بعد دار ظيركاش توقف، انتظر قليلاً قرب السياج، وأصاخ السمع - ما إذا كان ثمة كلب ينبح. لكن الكلاب كانت لا تزال صامتة، أو ربما تكون غير موجودة في القرية بتاتاً. وحتى في الماضي لم تكن تقتنى هنا كثيراً، فقط في الدساكر والبلدة. أما القرويون فكانوا لفقرهم يفضلون تربية خنزير إضافي. ومن الواضح أن الأمور ما زالت على حالها، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن أبناء قريته لم يصبحوا من الأغنياء. وخلف حديقة الكرز النادرة الأشجار كان ثمة بيت قميء، مغروز في الأرض، مسقوف بألواح عارية، كل الدلائل تشير إلى أنه مهجور. إذن أين أسرة إيفان بوغوريلتس، كثيرة الأولاد، التي كانت تقطن هذه الدار؟ وثمة دار أخرى، ذات نوافذ سوداء فارغة، لاحت له خلف شجيرات الكرز النادرة، وهي مهجورة على الأرجح. أما الدار المجاورة، فذات مصطبة مريحة، تمتد حتى الشارع، كان الرجال يحبون الجلوس عليها، ويتبادلون أطراف الحديث. أما الآن فإن هذا الجدار المائل مسند بصف من الأوتاد، كيلا

يقع. في الماضي كان يعيش هنا تسيبروكوف دميتر، أحد أكثر نشطاء لجنة الفلاحين الفقراء صخباً، النحيل والطويل كالعود، ولقد حصل من السلطة السوفييتية على المسكن الأفضل، فقد كان الأكثر فقراً، لكنه يبدو أنه لم يخدمها كما يجب، ما دام يسند داره بالأوتاد، على هذا النحو.

داس هويدور على روث بقري طري، فاندفع جانباً، أقرب إلى النباتات الشوكية. ومع هذا كان خائفاً: أن يتعثر بشيء أن يسمعه أحد، وهو يتسلل عبر الشارع. لكن يبدو أن أحداً لم يكن في الجوار في هذا الظلام، واضح أن القرية كلها تغط في سبات عميق. فقط خلف جدران الحظائر، المبنية من جذوع الأشجار، كانت الأبقار تتنفس وسنى، ومن الجانب الآخر من الشارع تناهى صوت باب يفتح - ثمة من خرج مدّةً قصيرة، لقضاء حاجة.

كان هويدور يسير على الأرض اللينة بهدوء. وبعد أن تجاوز البيوت المتطرفة في نهاية الشارع، وجد نفسه عند المقبرة، إذ كان السكون والهدوء يخيمان، كما هي العادة، وكانت أشجار الصنوبر العملاقة تضج حزينة في الأعلى. وخلف السياج الواطئ تألقت بشكل خافت في الظلام عدة صلبان جديدة - كبيرة وواطئة للأطفال. توقف قليلاً لدى السياج، وحين عثر على الممر، دخل بقلب واجف إلى مستوطنة الأموات المظلمة. ومن الممر كان ثمة درب قصير يؤدي إلى تلة أشجار الصنوبر، حيث كانت القرية تدفن موتاها منذ القديم، وحيث كان يذكر كل قبر. في الطليعة ارتفعت في صف واحد صلبان بلوطية فوق الصلبان الأخرى. إنها لآل شولياكوف - الأب وأبنائه الثلاثة، ويرجح أن تكون أسرتهم الأقدم في نيدوليشي. إذ يقال إن أول شولياك وصل إلى هنا من الديار الليتوانية، واستقر في المزرعة، بعد أن تزوج

وصيفة النبيلة المحلية. كل شيء حدث فجأة: ففي ذات مرة، وبينما كان يكدن الخيول، هجم ثور على الوصيفة، على الأرجح أن منديلها الأحمر أهاجه. وبكل جسارة قطع الحوذي شولياك الطريق على الثور، ويبدو أنه وضعها نصب عينيه منذ ذلك الحين. ولقد استطاعت سيدتها، وهي وحيدة والديها، أن تقنع أباها أن يعطي ثلاث أسر من الأقنان مقابل الحوذي، لكيلا تفترق عنها وصيفتها المحببة. بعد زواجها عاش الحوذي والوصيفة في الضيعة عمراً طويلاً، أنجبا خلاله ستة أبناء، ثلاثة منهم يرقدون منذ أكثر من مئة عام هنا تحت أشجار الصنوبر الصمغية. وفي الجهة المقابلة، أدنى قليلاً، ترتفع عريشة معدنية، ذات أعمدة جميلة من الحديد الصب، تلتف من حولها أغصان الكرمة المصنوعة من المعدن نفسه. وثمة بلاطة مرمرية فوق قبر البان الملازم الشاب، الذي أصيب بجرح قاتل في الحرب ضد الألمان، وتوفي في ضيعته. والآن لم يبق ثمة بانات بالطبع، فبقي القبر مهملاً، ونمت الحشائش الطفيلية فوقه، أما العريشة، التي دب فيها الصدأ، فتحولت إلى مرتع لأولاد القرية الأشقياء، وإلى ملاذ للمارة، يحتمون فيها من المطر. وفي الجهة الأخرى من هذا القبر، كان ثمة رقعة صغيرة، بين شجرتي صنوبر عملاقتين، وفيها يرقد آل روفبوي، المتحدرون من أصل فلاحي، وهم جداه وأبوه وأمه ثم شقيقته تيوكلا وطفلان ماتا قبيل الحرب بالديفتيريا. أما القبر الأخير فهو لأخيه الأصغر براكوب، وهو رجل طيب وحنون، وافته المنية قبل أن يتزوج، فلم يترك وراءه ذرية. مات بالتيفوئيد في العام الثامن عشر[1]، حين كان هويدور في الأسر الألماني. منذ أن ذهب هويدور إلى الحرب، في عام أربعة عشر، لم

(١) المقصود عام ١٩١٨ / المترجم.

يلتق الأخوان، سيكون الأمر في منتهى الروعة بالنسبة إليه أن يدفن إلى جانبه، فالمكان كاف على ما يبدو. وفي أسوأ الحالات فإن بالإمكان الدنو أكثر من القبر المجاور، ولن يشكل ذلك مصدر إزعاج لصاحبه. وربما يكون هذا هو السبب الأهم، الذي جعل هويدور، دون أن يعترف بذلك، يندفع إلى هنا من على بعد ألف كيلومتر، وبعد نفي، طال خمس سنوات.

بكل أناة، وبدون خوف تقريباً، طاف في الظلمة بقبور ذويه - أربعة حذاءه، واثنان إلى الأسفل قليلاً - على سفح الرابية المنحدرة قليلاً، ولامس صلبانها الخشنة. كان يخشى أن يفاجأ بقبر جديد مجهول. لكن لم يكن ثمة في هذا المكان قبور جديدة على ما يبدو. علماً أنه ليس من المستبعد بالطبع الدفن في نقطة أبعد، فالمكان متوفر. والآن اختلفت الأمور عن الماضي، فأصبح الناس يدفنون موتاهم أنى كان، مع الغرباء وحتى في أرض غريبة أيضاً، كما بالنسبة لزوجته غانوليا، أو لطفلته أوليتشكا. للمرة الألف شعر بتأنيب الضمير لأنه كان على عجل من أمره، فلم يدفن صغيرته كما يجب - لم يضع من حول قبرها سياجاً، حتى أنه لم يرفع عليه صليباً. لم يكن ثمة شيء في متناول يديه، ثم إنه كان مستعجلاً - كان دافعو الأخشاب عبر النهر بانتظاره، فقد اضطر لقطع خمسة فيرستات سيراً على الأقدام للحاق بهم.

جلس على قبر قديم لأحدهم، وهو قبر بدون صليب، لكنه محاط بالأحجار بشكل متقن. وراح يصغي إلى همس أشجار الصنوبر المغصوصنة العملاقة، ويفكر. شعر بالإرهاق المضني المزمن، والمستمر منذ أيام عديدة يثقل كاهله. ولكي لا يسقط عاجزاً، كان لا بدَّ من النهوض والسير. لكن

إلى أين؟ إلى البيت، لكن أحداً لن يستقبله، وإذا ما لجأ إلى العنبر، فسيعثرون عليه عند الصباح، ثم إن البقاء هنا غير ممكن، فسيكتشفونه مع طلوع الفجر. إذن إلى الغابة من جديد، فالغابة لا تكف ترحب به بصمت، ولا سيَّما أنها الغابة الأميرية، التي يعرفها منذ طفولته، ولا شك أنها ستنقذه الآن، ولن ترده، وهو المشرد، خائباً...

* * *

الفصل الثاني

/ الليل والسكون /

لا شك أنه لم يبتعد كثيراً عن طرف الغابة. وقد بدا وكأن الوضع بين الأشجار والشجيرات الفتية الكثيفة أكثر هدوءاً ودفئاً، وحين دخل دغلة كثيفة، ووقع بين أعواد السرخس القاسية والمدعوكة، لم يعد قادراً لا على السير ولا على الزحف. وقبيل أن يغفو ويسهو تذكر أنه قطع في هذا اليوم، لنقل قرابة الأربعين فيرستا - من بزوغ الفجر حتى حلول الليل، ولم يعد قادراً على قطع، ولو أربعين خطوة.

استيقظ وقد تخدر من البرد، وتخشبت ساقاه حتى الركبتين، أما رأسه فكان ثقيلاً، لكأنه تحت تأثير الخمار. للوهلة الأولى لم يع أين هو. في البداية خيل إليه أنه في المخثة[1]، في ضواحي كوتلاس، وأنه تأخر عن العمل. لكنه، ما إن فتح عينيه، حتى أدرك أن كوتلاس بعيدة، وأنه في عقر داره، في الغابة الصباحية، في مسقط رأسه. ولقد أمدته هذه الفكرة ببعض الحيوية والنشاط، فنهض على ركبتيه، وراح يتدفأ - محاولاً التغلب على البرد بالجهد الداخلي، كما سبق له أن قام بذلك مرات عديدة هناك، في الجانب الغريب. فهناك في الشمال كان يعاني من البرد كل صباح تقريباً. صحيح أنه لم يكن لديه الوقت هناك

---

(١) المكان الذي يستخرج منه الخث /المترجم.

لتدفئة جسمه، فهو دائماً على عجلة من أمره، كيلا يتأخر عن الخروج إلى التايغا للعمل في قطع الأشجار، أو في المخثة. كان رؤساء الزمر هناك في غاية القسوة والصرامة، ولا يكفون عن الزعيق، وإذا ما تأخرت، والعياذ بالله، تبقى جائعاً اليوم بكامله، لا بل وقد يضربونك، أو يسجنونك في السرداب.

راح الدفء يدب في جسمه رويداً رويداً، أما قدماه الخدرتان فكانتا لا تزالان باردتين، وإجمالاً فإن القدمين ستدفأن أثناء السير. كان يدرك أن عليه أن يذهب، لأن المكان هنا غير آمن نهاراً، فالقرية قريبة، ولن يلبث الرعاة أن يمروا بالقطيع من هنا، في طريقهم إلى الغابة، وقد يرونه. أجل إن القطيع يتردد إلى هنا كثيراً - فعلى الأرض رأى هويدور آثار حوافر البقر، ولم يلبث أن سمع أصوات الرعاة، وهم ينادون في الجوار، ولكيلا يراه أحد، نهض ومشى متثاقلاً إلى عمق الغابة.

رويداً رويداً كان الدفء يزداد، ويخيم السكون على الغابة. وراحت السماء المتجهمة تطل من بين أغصان أشجار الشوح الكثيفة، خلف ذرا أشجار البتولا المصفرة. وفي كل الاتجاهات كان يسبح ضجيج الغابة الحزين، يهدأ تارة، ويقوى أخرى. كان هويدور يشعر برغبة جامحة في سد رمقه، منذ وقت طويل وبطنه تقرقر بإلحاح، فخلال يوم أمس كله لم يضع شيئاً في فمه، إذ كان شغله الشاغل هو الوصول إلى الديار، ولم يكن يفكر بالطعام. كان آخر عهده بالطعام هو تلك القطعة من الخبز، التي حصل عليها من امرأة في الطريق، والتي التهمها أول البارحة، وأما البطاطا فلم يكن قد صادفها في أي مكان، مما اضطره للسير وقد أضناه الجوع. البارحة صبر على الجوع، فهو لم يشعر به، بسبب تهيجه من قرب لقائه بالأماكن العزيزة على قلبه، أما اليوم

فمنذ الصباح لم يعد قادراً على الصبر. لكن ما الذي يمكن أن تحصل عليه هنا؟ لن تدنو من الرعاة، فالرعاة يمكن أن يتعرفوا عليك. ثم إنك لن تدس أنفك في الطريق - فعلى الأرجح أنك قد تلتقي أحد معارفك، أن تصادف الغرباء أسهل، حتى ولو تحرشوا بك - إن لدى هويدور وثيقة تثبت أنه أندريه فوميتش زايتسيف، من مواليد منطقة سمولينسك، وأنه يشتغل عاملاً مساعداً في مجمع تصنيع الأخشاب في غاسمين. إن منطقة سمولينسك بعيدة من هنا بالطبع، ثم أين م. ت. أ. الغاسميني، هذا ما كان يجهله هويدور نفسه. لا شك أن هذه الوثيقة يمكن أن تفيده في مقاطعة كوما، وليس كثيراً، بل على بعد ألف فيرستا منها. لكن ماذا كان بمقدوره أن يفعل؟ لم يكن ثمة وثيقة أخرى لديه، علماً أنها خدمته مرتين، وهذا ما تشكر عليه.

سار هويدور عبر الغابة بهدوء، وكأنه يتسلل، فوق أوراق الأشجار المتساقطة، وقد وضع طرف الغابة نصب عينيه. لقد تذكر شجرة الكمثرى القديمة، التي مر بها البارحة، ورأى تحتها بعض الثمار، لكنه البارحة كان مشغولاً عن الطعام، أما الآن فكان الجوع يدفعه بعناد عبر الغابة، إلى أن رأى الحقل المعروف بين الأجمات.

لم يكن ثمة أحد قرب شجرة الكمثرى، وكان العشب لا يزال مزداناً بالثمار. لا بدَّ أن المزروعات الخريفية المخضوضرة في الجوار هي التي حمت الشجرة من القطعان من جهة الحقل، حيث كان الرعاة يدفعون بالقطيع بعيداً عنها، باتجاه الغابة. ملأ هويدور جيوبه بثمار الكمثري المتعفنة الجوانب. كان لا يزال يتذكر مذاقها منذ الطفولة، وحين راح يتناولها، لكنه لم يلبث أن أدرك أنه بالكمثرى وحده لا يمكن أن يسد جوعه، فلا بدَّ إذن من البحث عن

البطاطا. على طول حاشية الغابة من هذا الجانب كانت الأرض كلها مزروعة. وعلى الأرجح أن البطاطا كانت خلف الغابة، هذا إن كانت لم تجن بعد، لكن من المستبعد أن تكون قد جنيت، ففي الماضي لم تكن تجنى قبل شهر أيلول أبداً.

كان الفجر قد انبلج تماماً في الغابة، وتفاقم ضجيج أشجار السرو، وراحت السحب الشعثاء تسبح عبر السماء، لكن لم يكن ثمة مطر، كما لم يكن ثمة ندى على الأرض. ومن خلال المسير كانت قدماه في الحذاء القاسي الخشن تتدفآن. لقد خدمه هذا الحذاء كثيراً، والحمد لله، وإلا فأي حذاء كان يمكن أن يتحمل هذا الطريق؟ في المطر يتبلل، ولا يهترئ، وفي الجفاف يتقلص ويقسو، ويصبح كأنه من الحديد. يا له من حذاء عصي على التلف. ألا شكراً لذلك العامل، حامل المنجل الكبير على كتفه، والذي صادفه هويدور قرب براكة سكة الحديد، وقدم له قطعة من الخبز القاسي، وهذا الحذاء، وهو يقول له: «انتعله أفضل». كان هويدور حافياً. وكانت إصبع قدمه اليسرى مجروحة وتنزف دماً، ولم يتوان عن ارتداء الحذاء، فلف قدميه باللفائف القديمة، ثم شد الحذاء، وبالفعل فقد أصبح الوضع أفضل بكثير من السير حافياً، وقد قطع في هذا الحذاء قرابة المئتي فيرستا على الأرجح، وبوسعه أن يقطع المسافة نفسها لاحقاً، فالحذاء سيصمد.

عاد هويدور يسير على مهل عبر الغابة، التي يعرفها، وقد تحول إلى آذان صاغية، وهو في منتهى الحيطة والحذر، وراح الإحساس الهادئ بالسعادة ينسكب في روحه. كانت تلك غابته الأم، فهنا سبق له أن رعى الماشية، وجمع الفطر، وقطع الأشجار لصنع قائم المنجم اللازم لمدينة دنباس، كان يبدو أنه يتعرف على الضجيج شبه المنسي للأشجار المحلية وحفيفها. هناك في الشمال

كانت الغابة مختلفة، وكان ضجيجها من نوع آخر ـ برياً جباراً ومهدداً. أما هذه فهي لا تشكل تهديداً. كانت أوراق البتولا، التي وخطها اللون الأصهب، تختلج على وقع الريح بلطف ورخامة، وفي الأعالي كانت ذرا أشجار الشوح تهتز بانتظام، وهي تسبح بهدوء إلى وجهة ما. لكن خميلة الشجيرات الفتية أصبحت أقل كثافة عما كانت عليه خلال الفترة، التي لم يرها فيها هويدور، وربما تكون الشجيرات القديمة قد تسامقت، وتحولت إلى أشجار عادية من حوله. كان الخريف قد حل، فكانت أوراق الأشجار الصفراء الذابلة تتساقط، وتنغرس على العشب، وفي بعض الأماكن كانت تهسهس تحت قدميه، فكان يخشى أن يسمع وقع أقدامه أحد، لكنه تجاوز، والحمد لله، الرابية الرئيسة. وعبر طرف الوهدة خرج إلى الرقعة القديمة، المقتلعة الأشجار في الزاوية النائية للغابة الأميرية، حيث كانت الأراضي المهملة مغطاة بكثافة بأشجار الحور الرومي، وفي كل مكان كانت تنمو شجيرات العرعر الخضراء. وغير بعيد يمتد واد ضيق طويل، يجري فيه مسيل هادئ. بعد اجتياز الوادي قطع هويدور حوالي فيرستين من غابة الأشجار الفتية، ليجد نفسه على الحاشية، ومن هناك كان الحقل يترامى.

كان ظنه في محله، فهذا الجزء من الحقل، بدءاً من الغابة، كان مزروعاً بالبطاطا. لكنها اقتلعت، وكانت الأثلام المحروثة قد اسودت من أوراق البطاطا، أما الأرض فكانت محفورة، داسها البشر وحوافر الخيل. نبش هويدور قليلاً في نهاية الثلم، فعثر على الفور على حبة بطاطا، ومن ثم على اثنتين. فقال بينه وبين نفسه، وقد استيقظ لديه فجأة الشعور بالتدبير: إنهم لم يستخرجوا كل شيء، هذا إلا إذا كانوا ينوون إعادة الحرث... لكن لو أنهم حفروا بشكل

ملائم، إذن لكان بالإمكان إعادة الحرث، دون بذل جهد كبير. لكنهم هاهنا لم يحفروا إلا لذر الرماد في العيون، كما يبدو. وبأصابع خشنة راح يفتت كتل التراب الجافة، فيعثر فيها على حبات البطاطا، ويدسها في جيوبه. وإن هو إلا وقت قصير، حتى ملأ ثلاثة جيوب، ولم يعد ثمة من مكان آخر، فانتصب، وهو يشعر بالأسف: مثل هذه الثروة مدفونة في الأرض! آه لو أمكنه العثور على مثلها في ضواحي كوتلاس، هناك، حيث يأكلون العشب ولحاء الأشجار... كانت حبة البطاطا هناك أثمن من التفاحة، حتى ولو كانت نيئة.

عاد أدراجه إلى الغابة، بجيوب ثقيلة، وهو مسرور. كان لا بدَّ من العثور على مكان مناسب لإشعال النار. على الأرجح أن هذا الأمر في منتهى الخطورة - النار، فمن الممكن أن يروا الدخان في الغابة. على الأرجح أن المكان الأفضل هو ساحة تقطيع الأشجار، خلف الوادي، إلى حيث لا يذهب سكان قريته إلا نادراً، وهذا ما يعرفه من الأزمنة الغابرة، اللهم إلا العجائز صيفاً، فهن يذهبن إلى هناك لجمع ثمار الأرض، فالفطر لا ينبت هناك. في الماضي كانت الذئاب تعيش هناك، وأثناء صوم فيليب[1] كان عواؤها يتناهى إلى قريتهم، أما الأولاد فلم يكونوا يذهبون إلى هناك بتاتاً. إنه المكان الأنسب له، أن يقترب من الذئاب، لا البشر، فكر هويدور بتجهم.

سار في الغابة طويلاً، إلى أن وصل ساحة التقطيع، عندها نزل إلى منخفض معتم، تنمو فيه أشجار الحور الرومي بكثافة، وغسل يديه القذرتين في الجدول غسلاً خفيفاً. كان الماء بارداً وصافياً كالدمع. فشرب من كفه حتى ارتوى. ومن فوق الأحجار الزلقة، الخضراء بسبب أعشاب الماء، انتقل إلى

---

(1) عيد مسيحي روسي في كانون الثاني / المترجم.

الجهة الأخرى من المنخفض. لم يتمكن من تسلق السفح فوراً، بل اضطر إلى أن يرتاح مرتين، وقد أصبح ضعيفاً، كما حدث منذ عامين مضيا، في المخثة، حين لم يكن بمقدوره الخروج من حفرة الخث، وكان الرفش يبدو وكأنه أثقل من الجذع. ذاك ما تعنيه الحياة، والعمر أيضاً. ففي سني الشباب كان يصدف أن يرفع جذع الصنوبرة على الزحافة بكل يسر، وكان يحمل أكياس الغلال إلى الطاحونة جرياً. ويا له من غريب الأطوار، فقد تراهن ذات مرة مع الشباب من أبناء قرية كوسينكوفو على رفع مهرة إيفانوف. يا لها من مهرة رائعة، ذات صلعة على بوزها. من بعدها أصبحت مركوب الشرطي زافيالوف. أما الآن فهو يجد صعوبة بالغة في الخروج من المنخفض، الذي كان في سن المراهقة يقطعه دون توقف، ودون أن يلتقط أنفاسه. هاكم ما فعله الزمن وحياة الأشغال الشاقة بهويدور. لو أنه عرف ذلك سلفاً، فهل كان سيبنيها على هذا النحو؟ لكن كيف كان سيبنيها إذن؟ فهل هو من كان يتصرف بها؟

بالفعل كان المحتطب قد نما بكثافة بالحور الرومي والرجراج، واستقام السرخس القاسي فبلغ الخصر، وخلال فصل الصيف تطاولت الأعشاب الحرجية، ذات الأوراق الطويلة، واشرأبت نحو الشمس. ابتعد هويدور قليلاً عن المنخفض، واختار فسحة صغيرة بين الشجيرات، وشرع يستعد لإشعال النار. إنه لا يزال يهفو إلى الطعام بكل كيانه. وكان يبدو أن لا شيء في الدنيا أكثر لذة من البطاطا المشوية، الخارجة من الرماد للتو. لكن لا بدَّ من الحصول على الرماد أولاً. لم يحتج إلا لعود ثقاب واحد حتى أضرم النار في سقيط الأغصان، الكثير هنا، لكن تكاثف ألسنة الدخان الصهباء أثار خوف هويدور من أن يراه أحد، فراح يبعثر النار كي يخفف من غلواء الدخان، أما كبح جماحه نهائياً فلم يكن ممكناً. ألقى بكمية أكبر من العيدان،

بينما تراجع هو إلى الأجمة، واختبأ في حال جذب الدخان أحدهم، فلن يجد أحداً لدى النار.

كان جالساً في الأجمة الصغيرة، وهو يتابع ذيل الدخان البعيد ويفكر بحسرة: يا للدرك الذي وصل إليه. هنالك في الجانب الغريب على بعد ألف فيرستا من هنا، كان مضطراً لأن يخاف كل شيء، يختبئ ويتخفى، لقد سلمنا بذلك. لكن هنا؟ في أرضه الأم؟ بين أهله وذويه؟ هل سبق أن حدث مثل هذا لأي كان؟ أما له فحدث. ليس في اليد حيلة، عليه أن يتخفى، وإلا...

طيب وماذا سيحدث في أسوأ الحالات؟ الهلاك؟ إن من شأن ذلك أن يكون مغرياً حتى - إن هلك، فقد يدفنونه في مقبرتهم. أم إنهم سيضعونه في السجن. على الأرجح أن السجن ليس بأسوأ من وضعه الحالي - سيكون ثمة طعام ما وسقف فوق رأسه. فبعد كل ما عاناه، لم يعد يخاف السجن كثيراً. لكن من المستبعد أن يعاقبوه بالسجن. على الأرجح أنهم سيردونه على أعقابه، إلى هناك من جديد، إلى الأرض الباردة، التي لم يستطع العيش فيها. كل ما يستطيعه هناك هو أن يموت، كما ماتت زوجته بالسل، وكما قضت نحبها صغيرته. يومذاك شعر أن أجله هو أيضاً قد حان.

بيد أنه أراد أن يموت في الديار، وها قد حالفه الحظ، فوصل إليها.

فمما يتذمر إذن؟ البارحة لم يكد يرى حقله وقريته، حتى أشرق كل ما في روحه وغنى. لا شك أنه شعر بالحزن والأسى على خراب عشه، فقد كان يعتقد أن داره لا تزال قائمة. كم مرة راودته في الأحلام حديقته، بهوه، بئره ذات الطارة المقعقعة، والبناء غير المكتمل. زاوية العنبر، فالسطح، في الركن الأيسر أصبح يدلف، ولا سيّما في المطر الغزير. أكثر من مرة قرر أن يغطيه بقش جديد، لكنه لم يفعل...

والآن أين ذلك كله؟ إلى أين نقلوه؟ أم لعلهم استخدموه حطباً لمجلس القرية، على غرار ما فعلوه بمزرعة ألبيرتوفكا بعد الحرب، حيث استخدموها حطباً. كانت مزرعة ممتازة - الحطام والإصطبل، كان الإصطبل مميزاً جداً، فقد كان مبنياً من العوارض المنشورة، بشكل مزخرف. لقد أتلفوا كل شيء، حطموه وأحرقوه في مجلس القرية وفي بيت المطالعة. من الواضح أن داره تحولت إلى نار ودخان. والغريب أنه لم يشعر بالأسف، فإذا ما راح يتأسى على كل ما جناه وفقده يمكن أن يصاب بمس من الجنون. لقد أمضى في جنيه السنوات، بشق النفس، بالجسآت الدامية، بالظهور المحنية - ظهره وظهر زوجته، بالعمل الدؤوب فوق كل شبر من الأرض، وجمع كل قشة وكل جذاذة، لكنه فقد كل شيء في لحظة واحدة، ووجد نفسه في الأشغال الشاقة، لكن بأي ذنب؟

هذا السؤال اللعين: «بأي ذنب؟»، كان كالمسمار المحمي لا يفارق رأسه. ألف مرة سأل نفسه، والقطارات النتنة تنهب به الأرض نحو الشمال، والزحافات تنطلق به فوق النهر المتجمد، وهو يعاني الأمرين في تقطيع الأشجار في التايغا. كان يسأل زوجته، الناس، معارفه وغير معارفه، يسأل الرؤساء - بأي ذنب؟ فكانوا يحدثونه عن السلطة، عن الصراع الطبقي وعن إشاعة التعاونيات. لكن أحداً لم يستطع أن يشرح الأمر بحيث يصبح مفهوماً: بأي ذنب انتزعوا الأرض، التي أعطته إياها السلطة، وجردوه من جني عمره، وحكموا عليه بالنفي مع الأشغال الشاقة؟ بأي ذنب؟ أين تكمن جريمته؟ هل تكمن في أنه صدق ووافق على الاستسلام؟ لكن وكيف لا يستسلم. فمن أين يطعم أسرته إذن؟ فأخوه ميتكا لم يكن يريد القسمة، وبالفعل فلم يكن لديهما ما يستحق القسمة - مجرد ستة ديسياتينا. فماذا كانت ستنفع تلك القسمة؟ ثم إن أخاه أكبر منه، ومِن ثَمّ فهو أحق بالملك منه، هو الأصغر. أمضى هويدور عامين على

التوالي، يشتغل أجيراً في المزرعة، ومن ثم تزوج بأجيرة مثله، لا أرض لديها ولا مهر. لم يكن ما لدى غانولكا من أرض يزيد على طول ذيل الأرنب[1]، وفي أسرتها - ثماني نفوس، بمن فيهم خمسة أخوة، فكيف يرفض هذه النعمة؟ وهكذا أخذ الأرض.

الأنه أصبح ميسوراً؟ لكنه لم يكن يتوقف عن العمل صيفاً ولا شتاءً: فبنى الدار واشتغل في الحقل، وكان يسعى جاهداً لتسديد الضرائب في المواعيد المحددة، والضرائب الذاتية والقروض والتأمين. وحين ترعرع ابنه ميكولكا، أصبح يعاونه، ثم إن الحكومة رفعت شعار - النهوض بالزراعة وتحسينها. وبالفعل فمن كان يريد العيش في البؤس والفاقة؟ ويأكل الخبز مع العصافة؟ لقد صدق هويدور الحكومة، لكن تبين أنه خدع.

لم تكن النار قد خبت بعد، حين عمد، وقد نفد صبره، إلى طمر عشرات حبات البطاطا في الجمرات الصغيرة. لم يكن الجمر يكفي لأكثر من ذلك - ومن جديد ابتعد قليلاً، وراح ينتظر. حتى الآن كان السكون يخيم على الكون، طائر العقعق فقط زقزق قليلاً عند المنخفض، ثم طار. كان الجوع يضنيه أكثر فأكثر. وبعد قرابة العشر دقائق فرغ صبره، فدحرج بالعود حبة البطاطا المتطرفة من بين الجمرات، كانت لا تزال فجة وقاسية، لكن بالنسبة إلى الجائع حتى هذه تصلح. مسح يديه الملوثتين بالرماد بسرواله، وشرع يأكل، على الرغم من سخونتها. بعد ذلك سحب واحدة أخرى. وكما توقع فقد كانت البطاطا لذيذة بشكل مدهش، فراح يلتهمها الواحدة تلو الأخرى، إلى أن لم يبق في النار إلا الحبات الأخيرة، الناضجة، على ما يبدو، وقد دسها، وهي لا تزال ساخنة، في جيوب سترته.

---

(١) كناية عن الفقر المدقع / المترجم.

شعر، بعد الأكل، أنه أصبح أكثر نشاطاً. وكان عليه الآن أن يفكر بكيفية الخروج من الغابة. كان يتوق للنظر إلى الحقل، فلعله يتعرف على أحد من أبناء قريته - سيحاول، ولو من بعيد، أن يخمن كيف يعيشون في الكلخوز. من الواضح أن العيشة ليست ممتازة، ومع هذا فهي أفضل من عيشته خلال هذه السنوات. المهم أنهم أحرار وعلى أرضهم. في كوتلاس لم يسمع أية أخبار عن القرية، وإن سمع فمجرد شائعات لا أكثر. بيد أنها لم تكن شائعات سارة، فلم تكن لديه رغبة في تصديقها. فكيف هي الحال هنا، في الواقع؟

خرج من الأدغال، وسار وطرف مستنقع رطب مطحلب إلى حاشية الغابة - من جانبها الثالث هذه المرة. كان هذا الحقل يعرف باسم سيوربوفو، على تخوم قرية تشيرنو روتشيه المجاورة، التي كانت أسطحها تظهر هناك على التلة البعيدة. وهناك في الحقل البعيد كان الناس يشتغلون فعلاً، إنهم جيرانه الكلخوزيون، يقلعون البطاطا. لم يقدر له أن يعمل في الكلخوز يوماً واحداً، لكنه قرأ عن العمل الكلخوزي في الصحف، وكان يتوقع أن يراه قائماً على قدم وساق، تشارك فيه الزمرة كلها، وربما على إيقاع الأغاني. وبدلاً من ذلك رأى في الحقل البعيد المعرض للريح عشرات النسوة الكلخوزيات المبعثرات، وهن ينبشن في الأثلام، ومن هنا رأى ظهورهن المنحنية، ورؤوسهن الضخمة، المغطاة بالمناديل السميكة وأقدامهن الحافية. جميعهن كن يجررن خلفهن أكياساً ضخمة، معبأة بالبطاطا، ليضعنها في كومة وسط الحقل. وبالقرب من هذه الكومة كان ينوس رجل طويل الساقين، في يده ورقة، لا بدَّ أنه المراقب، في الوقت الذي كان فيه ثلاثة يشقون الأرض بالمحاريث، وهم لا يكفون يستحثون الجياد بالصراخ. كانت الخيول تبدو، حتى من هنا، وهي تجد صعوبة كبيرة في التحرك من شدة الإرهاق، وهي تهز رؤوسها المطرقة. كانت عبارة عن خيول حراثة جائعة

نحيلة، لم يكن بالإمكان أن تصادفها سابقاً في قريتهم إلا لدى تسيبروكوف زميتر وإيغناليونك، وهما الفلاحان الأكثر سوءاً، أما جميع الباقين، فقد كانوا، بغض النظر عن مستوى معيشتهم، يسعون من أجل العناية بخيولهم، إذ لا مزرعة بدون الخيول. أما هنا فإن كل الدلائل تشير إلى أن الخيول استنزفت نهائياً. صحيح أنه يرى ذلك من بعيد، فربما لو كان قريباً، لما بدا له هذا العمل شاقاً إلى هذا الحد، ولرأى أن النسوة أكثر مرحاً في عملهن. لكن شيئاً ما حزيناً بائساً انسكب في مشاعره عند هذا الحقل، وراح يعذبه. لا شك أن الناس كانوا بعيدين جداً بحيث يصعب التعرف على أحدهم، علماً أنه كان يرغب في ذلك كثيراً... لم يتوقف سوى مدّة قصيرة، ثم تحرك وطرف الغابة باتجاه آخر، نحو الطريق، والأمل يحدوه في أن يلتقي أحداً من معارفه. فقط أن يتعرف عليه بالشكل، أما أن يتحدث إليه، ويطرح عليه الأسئلة، فهذا ما لن يجرؤ عليه. اكتف بالقليل، فما في اليد حيلة: يبدو أن هذا قدره. لقد نفوه من القرية، نبذوه، كما ينبذ الخنزير الجربان، لكيلا يفسد القطيع. رموا به بعيداً، ونسوه. فهل بوسعه أن يكشف عن هويته لأحد؟ فما بالك بإلحاق الضرر بأحد من جراء ظهوره؟

لم يتغير الطريق، عما كان عليه، كما يذكر هويدور. فهو لا يزال محفراً، بالياً، تتراءى في وسطه برك الماء القديمة، التي كانت العربات تلتف من حولها، كما هو واضح من آثار العجلات على كلا الجانبين. وشجرتا البتولا لا تزالان قائمتين، كما كانتا في شبابه، واحدة عالية ومستقيمة، والأخرى متفرعة على شكل مذراة - إنهما هرمتان، قاسيتان، وقد يبس لحاء جذعيهما. وتحت المستقيمة يبدو واضحاً، عبر الطريق، أن ناراً قد أضرمت، منذ عهد قريب، حيث لفح اللهب لحاءها، وأحرق أغصانها الدنيا. إنهم الرعاة على الأرجح. أقعى هويدور قليلاً، خلف أجمة مغبرة على جانب الطريق، وراح ينتظر، وهو يراقب الطريق

من كلا طرفيه. حتى الآن لم ير أحداً، من الواضح أن الجميع في الحقل، فما الداعي للتسكع في الطرقات. لكنه جلس صابراً، وراح يفكر. من هو أول من يريد أن يراه هنا؟ ليوكسا سافتشيك على الأرجح. فهو جاره ومن عمره، وإجمالاً فهو شخص مخلص، وفقه الله. لكن الله لم يهبه الكثير من التوفيق. ففي حرب نيقولاي[١] أصيب بشظية في كتفه، ولا يذكره هويدور إلا وهو يعاني من يده، فلم يكن بوسعه القيام بالعمل الصعب. لكن أين هو العمل السهل في حياة الفلاح؟ كان المسكين ليوكسا يكدح ليل نهار في حقله، ولديه حفنة من الصغار، فكان هويدور يمد له يد العون أحياناً - تارة ينشر له الحطب، وأخرى يساعده في وضع الزبل في عربة النقل. لكنها مساعدة عادية، كما تقتضي الجيرة، دون حماسة تذكر، لا بل بانزعاج أحياناً، فقد يطلب منك النير، وأنت نفسك بحاجة إليه. أحياناً كان يقرضه بعض المال. وإجمالاً كان هويدور يشفق عليه، لأنه جاره، وأحد أترابه، وكلاهما ذاق الأمرين في الحرب الألمانية[٢]. ولو أنه عرف كيف ستدور عجلة الزمن، إذن لأشفق عليه أكثر، ومن كل قلبه، فليوكسا كان على كل حال، إنساناً جيداً.

أجل، من الواضح أنه من العبث أن ينتظر المرء حدوث ما يطيب له. أمضى هويدور الكثير من الوقت جالساً قرب الطريق، الذي ظل على عهده خالياً، على الأرجح أنه جاء إلى هنا عبثاً. ولم يكد يفكر على هذا النحو، حتى ظهرت عربة آتية من جهة البلدة. كانت الفرس الرقطاء تنحدر من على التلة بنشاط، وكان ثمة في العربة اثنان - رجل وامرأة. والطريف أن المرأة الجالسة في

(١) المقصود الحرب العالمية الأولى، التي دارت في عهد القيصر نيقولاي الثاني /المترجم.
(٢) المقصود الحرب العالمية الأولى /المترجم.

المقدمة هي التي كانت تسوق الفرس، لكنه لم يتعرف على المرأة، حتى عندما اقتربت العربة أكثر. أما الرجل... وكان الرجل في قبعة شتوية شعثاء، وفي معطف من فرو الغنم مرفوع الياقة، وقد جلس منكس الرأس في مؤخرة العربة، طاوياً يديه على ركبتيه، أما ساقاه فكانتا مدثرتين بلحاف ممزق مبرقش. ولم يكن يكف عن السعال بصوت خافت لا يبشر بالخير. شيء ما بدا مألوفاً لهويدور في وجهه المنهك، وحينما أصبحت العربة قريبة جداً، تعرف عليه فجأة، لكأن أحداً أخبره - إنه ظيركاش. أجل لقد كان هذا ميكيتا ظيركاش، الذي وشى بهويدور، بأن لديه دراسة، ومن هنا بدأ كل شيء. في البداية عقوبة رادعة، أعقبتها اخرى، وتوالت إلى أن نفوه. لكن من الواضح أن حياة ظيركاش الحسود لم تكن موفقة، من الواضح أنه مريض. واضح أن زوجته تعود به من المستشفى، أو من عند الطبيب، ولم يكد هويدور يتمعن في وجه ظيركاش الشاحب، حتى أدرك أنه لن يعمر طويلاً. لقد أصبح ظيركاش يقف بقدم هناك. كان هويدور يشعر بذلك جيداً، لقد رأى الكثير من مثل هذه الحالات في حياته. وبشكل لا إرادي تحرك في روحه الشعور بالانتقام نحو المريض: فعلاً إن الله يرى كل شيء، والقصاص العادل آت. في السابق كان من شأنه أن يفرح، أما الآن فلم يستطع. إنه لم يَكَدْ يشعر بالضغينة لمن أساء إليه، فقد احترقت خلال سنوات عذابه هو. إنه لم يتمن السوء لأي كان، ولا لنفسه أيضاً. أمد الله في عمر ظيركاش الحسود في هذه الدنيا.

لكنه لسبب ما شعر بالكآبة والمرارة. بدا النهار وكأنه يميل إلى المساء - يكاد ينصرم اليوم الأول المنشود من وجوده في موطنه، لكن كل شيء لم يجر كما كان ينتظر، كل شيء جرى كيفما اتفق. فما الذي سيحدث لاحقاً؟

لفترة قصيرة أخرى ظل جالساً، عسى أن يرى أحداً آخر على الطريق مساءً، لكن أحداً آخر لم يظهر عليها بعد ذلك. ومع حلول الغسق نهض، وجر نفسه باتجاه القرية، سالكاً طرف الغابة. ربما كان من الأفضل، قبل أن يضرب الظلام أطنابه، أن يشق طريقه نحو المكان الذي عمل فيه في تقطيع الأشجار، لكنه وجد نفسه منجذباً إلى القرية بعناد، فسار عبر الغابة على مهل. ولم يلبث أن تجاسر وخرج إلى الحاشية، نحو الحقل المزروع. كان الغسق الخريفي قد بدأ يتكاثف فوق الحقل والوهدة، وتراءت في البعيد عدة أضواء باهتة في القرية - إنهم الكلخوزيون يشعلون الأضواء. وشعر برغبة عارمة في أن يلقي نظرة من الشارع عبر نافذة أحدهم، أن يرى الناس داخل بيوتهم، فلعله يرى أحد معارفه. إنه أمر محفوف بالخطر، لكن ربما لن يعرفوه، حتى إن رأوه، وإذا ما نادوه لا يرد، لكأنه أطرش، ويتابع طريقه بهدوء. كانت تسيطر عليه رغبة لا تقاوم في رؤية أحد معارفه الأحياء، أحد الأخيار طبعاً، لا الأشرار.

وبكل هدوء، كمن يتسلل، متوقفاً عند كل خطوة، تجاوز كما البارحة، مسكنه البائس، عبر الزرع، وخرج على مهل إلى الشارع، عبر الحواكير. ها هي دار سافنيكوف الدحداحة، تحت الصفصافة العوجاء. إذا ما دخلت الحاكورة، وجدت نفسك إزاء النافذة، مقابل فرن ليوكسا، وهي النافذة نفسها التي كانت طاولة المطبخ تجاورها، وقد حشرت برفها. في الظلام الدامس، الذي خيم تماماً، قفز هويدور فوق السياج، وشق طريقه نحو البناء، ونبات القراص يحرق يديه. لم يكن الضوء في نوافذ ليوكسا قد أشعل بعد، لكن هويدور كان يشعر أنهم لم يناموا، فبين الفينة والأخرى كانت تتناهى إلى سمعه بعض الأصوات

الغامضة في الدار. راح ينتظر وقد اختبأ بين نبات القراص. وبالفعل لم يلبث أخيراً أن قرع الباب في مكان ما بشكل خافت، وظهر في النافذة ضوء المصباح المتمايل. لقد ظهر بشكل خاطف في إحدى النوافذ، ثم في أخرى، وتسمر في الركن الأقصى، خلف الفرن. أمعن هويدور النظر بقوة، ليعرف من هناك. وخلف النافذة مر ظل غامض لأحدهم، ثم اختفى. من كان هذا، لم يكن بالإمكان معرفة ذلك من هنا. لم يكن يسمع صوت بشري في دار ليوكسا، علماً أنها كانت في وقت من الأوقات تغص بالأولاد، أم لعله لا يوجد أحد هنا، باستثناء هذا الظل الصامت؟ لكن أين الباقون إذن؟ أين ليوكسا نفسه؟ وبناته الخمس؟

لم يعد بوسعه أن يرى أكثر من ذلك، وهو بين نبات القراص، فغادر الحاكورة إلى الشارع. ومن جديد، وكما البارحة، راح يطوف القرية، محاذراً أن يصدر عنه أي صوت. كان ضوء المصابيح الأحمر المتراقص ينير عدة بيوتات أخرى، لكن النوافذ في دارين كانت مغطاة، وبالقرب من البيت الثالث كان ثمة شخص يدبدب في الباحة بجوار البوابة، فلم يكن من هويدور إلا أن أطرق برأسه، وابتعد على عجل.

*   *   *

الفصل الثالث

القمر بدرٌ

من جديد بات في الغابة. فقد ابتعد عن القرية، سالكاً الحاشية، وإذ صادف طحلباً جافاً، التف على نفسه، تحت أجمة من شجيرات العرعر. كانت ليلة باردة، ولفترة طويلة ظل النوم عصياً عليه. وحتى صياح الديكة الأول تقريباً ظل يتقلب على الطحلب، وهو يرتعد من البرد، دون أن يتوقف عن التفكير بتقلبات قدره البائس السخيفة.

كان يتملكه الشعور بالدهشة من أن الحظ قد حالفه، ربما للمرة الأولى في حياته. والحقيقة أنه لو عرف مسبقاً ما الذي ينتظره في موطنه، إذن لربما فكر ملياً: هل يستحق الأمر مثل هذه المخاطرة، لكنه لم يعرف، لم يفطن إلى ذلك، وإجمالاً من حسن الحظ أنه لم يكن يعرف، ولهذا السبب فهو الآن هنا، في الديار. أما ما الذي سيحدث لاحقاً، فهذا ما لم يفكر فيه، لا حينذاك، عندما حزم أمره، ولا الآن، وقد بلغ مبتغاه. المهم أنه حقق ما كان يصبو إليه، وليكن بعد ذلك الطوفان. إن التفكير على هذا النحو ليس بالسليم، إن لم نقل إنه بالغ الحماقة، كما السكير، الذي يسعى جاهداً من أجل الحصول على المشروب، دون أن يفكر بالخَمَّار الذي يتربص به؛ أو كما الجائع، الذي لا هم له الآن إلا أن يشبع؛ أما ما الذي سيحدث بعد ذلك، فلا يشغله كثيراً - كان يبدو وكأن هويدور قد روى ظمأ روحه، أما يوم غد فكان يخاف حتى مجرد التفكير فيه.

عاد الجوع يضنيه ليلاً. كان قد أكل حبتي البطاطا المشويتين، وهو يضرب في أرجاء الغابة، ولم يبق في جيبه سوى ثلاث حبات نيئة. هناك في ضواحي كوتلاس أو سيكطيفكار كانوا يأكلون حتى النيئة بكل شهية. فإذا ما قطعتها على شكل شرائح، ووضعتها على الخبز، كما الفجل أو اللفت، ستلتهمها وتلعق أصابعك من بعدها. وهي مفيدة جداً لعلاج الإسقربوط. يبدو أنه سيضطر هنا أيضاً للانتقال إلى الأكل النّيّئ، ولا سيَّما بعد أن ينفد الكبريت لديه، وعلى الرغم من حرصه عليه، لم يبق لديه سوى ستة أعواد في علبة مدعوكة وتالفة، ومن أين سيحصل على أعواد ثقاب أخرى؟ لن يعثر عليها في الغابة، وفي القرية لا يمكن أن يطلبها. كان بالإمكان طلبها هناك، حيث لا يمكن أن يتعرف عليه أحد، أما هنا فسيتعرفون عليه في الحال. يا له من أمر غريب - كما خطر لهويدور - يظهر أن الغربة أفضل معاملة للهارب من موطنه، الذي كان بأشد الشوق لرؤياه، والذي لم يتوقف عن التفكير فيه آناء الليل وأطراف النهار، وحيث يعيش الكثير من معارفه وجيرانه وبني جلدته، الذين أمضى جل حياته بين ظهرانيهم. لكن إلى هؤلاء بالذات لا تلجأ، وهؤلاء من يجب أن تحذرهم بالدرجة الأولى، يا لها من سخافة. هذا يتنافى مع العرف البشري ومع الشرع الإلهي. فلماذا الأمر على هذا النحو؟

لديه الآن، كما لدى الطفل الصغير عشرات، بله مئات الـ لماذا، التي لا يستطيع الإجابة عنها، مهما بذل من جهد، ولم يستطع الإجابة عنها أحد، من أولئك الذين استفسر منهم.

بدت تلك الليلة لهويدور وكأن لا نهاية لها أبداً، من حيث الصراع المستمر مع البرد. كان لا يكف يتقلب على الطحلب البارد، وإذ فشل في التخلص من الارتعاد، راح يقضقض بأسنانه - محاولاً بث الدفء في جسمه،

لكن الدفء كان عصياً، ثم إن الخوف المبهم، المتربص به عند تخوم الوسن، كان يتشبث به بقوة في أحضانه. فكان تارة يغيب عن الوعي في رؤى وسنية، وأخرى يستيقظ من جديد. كان السكون يخيم على ما حوله. ومع حلول منتصف الليل، هدأ تقريباً ضجيج الغابة المألوف، واختفت تماماً ذرى أشجار الشوح في ظلمة السماء الدامسة: وبين السحب ومض وتلاشى نجم عال يتيم. وبعيد منتصف الليل، على الأرجح، نعقت بومة الغابة في مكان ما، من جهة المستنقع، خلف موقع قطع الأشجار، نعقت قليلاً، للمرة الأخيرة، ثم لاذت بالصمت، وكأنها غصت. ربما أخذته هو أيضاً سنة من النوم قبيل الصباح، بعد أن أضناه الصراع مع البرد، فألفه، دون أن يشعر بذلك.

استيقظ وقد تملكه قلق غامض، يقرب من الخوف، وإذا رفع رأسه، رأى قدامه وجه بقرة مبللاً، وعلى شفتها خيط من اللعاب الأخضر. كانت البقرة تتفحصه بعينيها الكبيرتين الحزينتين، وهي تلوك. وإلى جوارها اهتزت الأغصان، ومن بين الأجمات ظهرت واحدة أخرى، سمراء داكنة، ذات قرن مكسور على جبينها المنحدر، وراحت بدورها تحملق بهويدور. وإن هي إلا لحظة حتى أدرك أنه وقع بين قطيع القرية، الذي لن يلبث أن يحيط به، فوثب. بالطبع لم تكن البقرات مصدر خوف، بل الرعيان، الموجودون في مكان قريب، والذين يمكن أن يروه. لوح بيديه في وجه البقرتين، واندفع جانباً نحو شجيرات العرعر، عندها تردد بالقرب منه نباح كلب. لم يكن الكلب، كما يدل صوته الهريري، ضخماً، وعلى كل حال لم يكن كلب رعاة. لكنه، ليأخذه الشيطان، أحدث الكثير من الصخب في الغابة، ولا شك أن ذلك وصل مسامع الرعاة. انطلق هويدور بكل ما أوتي من قوة، هارباً، إلى عمق الغابة. وعندها اندفع الكلب الصغير، من بين شجيرات العرعر، وانطلق بجواره، كأنه يسابقه. راح

هويدور يجري بين الأشجار، وهو يشتم بصوت ضعيف، محاولاً كبح جماح الكلب، لكن ذاك لم يَرْعَوِ، وظل نباحه الجنوني يرافقه بعناد. «صحيح أنك صغير، لكنك شرير، ليتك تنفق أيها اللعين» - هذا ما قاله هويدور بينه وبين نفسه، وهو يتابع الجري، لكن من الواضح أنه لم يكن في نية الكلب أن ينفق، فقد ظل يطارد هويدور طويلاً.

أخيراً بدأ الكلب يتخلف، بعد أن نال منه التعب، فأصبح نباحه الثاقب متقطعاً، إلى أن سكت نهائياً في الخلف. وبدوره شعر هويدور بالكثير من التعب، بعد هذا السباق، فكان يجرجر قدميه بين الأشجار بصعوبة كبيرة. كان الغضب والغيظ يأخذان بخناقه. يا سلام - حتى الكلب أيضاً. كان يخاف أن يصادفه في القرية، فإذا به يلحق به في الغابة. لو كان ذئباً، خنزيراً برياً، أو كلب رعاة، كما كان يحدث في الشمال، أما هذا الكائن الهريري التافه. ليتك تنفق أيها اللعين. المهم أَلّا يكون الرعاة قد رأوه في الأجمة الصغيرة.

لقد دفعه الكلب اللعين إلى تلك المنطقة من الغابة، التي لم يكن يعرفها إلا لماماً. فحتى العشب أو الطحلب لم يكونا موجودين هنا في هذه الأرض الجرداء المعتمة - كانت برمتها مفروشة بالصنوبريات، ومن حولك ترتفع بكثافة أشجار الشوح الكثيفة الداكنة، ومن بين أدغالها كانت السماء البعيدة لا ترى إلا بمشقة. لكن بالمقابل كان المكان هادئاً ساكناً، حتى ليبدو وكأن المشاغل البشرية لا تنفذ إلى هنا بتاتاً. كان ضجيج الغابة الرتيب يتدحرج - يسبح في مكان ما في الأعالي، دون أن يلامس الأرض تقريباً، فكان تقصف العود تحت الأقدام يسمع في مكان بعيد. إلى هذا الجانب من الغابة لم يأت هويدور سوى مرتين، وكلتاهما كانتا شتاء على ما يبدو، حين قاموا بتقطيع الأشجار لدانباس: فهو يذكر كيف

كان يقوم حينها بنقل أمتاره المكعبة إلى المحطة من مسافة أربعين كيلومتراً. ومن هناك تمتد نحو الغرب بوغوفيزنا، المشهورة في الأماكن المحلية، وهي فضاء مستنقعي هائل، خال من الطرق والقرى، يمتد شريطاً عريضاً حتى الحدود البولونية بالذات. إنها منطقة غريبة تماماً، غامضة وشبه مجهولة.

لم تعد قدماه قادرتين على حمله بسبب التعب، وشعر برغبة عارمة في أن يقع، ويبقى راقداً في مكانه لا ينهض. لفترة طويلة لم يجد هويدور إلى الطمأنينة سبيلاً، بعد هذا الجري المضني، وراح يمشي بتثاقل عبر غابة الشوح، ولا يكف عن تجنب الأغصان البارزة على ارتفاعات منخفضة. على الأرجح أن بالإمكان الآن التخلص من الخوف، فمن المستبعد أن يساق القطيع إلى هنا، إذ أن المكان لا يناسب، لا البشر ولا الدواب. شيئاً فشيئاً راح يطمئن نفسه، لكن الإحساس المألوف بالجوع أصبح يزداد إلحاحاً مع استعادة الطمأنينة، وتلفت حوله بشكل لا إرادي، لكأنه يحاول رؤية أي شيء قابل للأكل. لكن من الواضح أن هذا المكان خال مما يؤكل. أخيراً وبعد أن أنهك، جلس على جذمور واطئ مقلوع، وأخرج من جيبه مدية قديمة. لقد سبق لهذه المدية، حتى قبل تأسيس الكلخوزات، والتي اشتراها في حانوت القرية، أن كانت ذات فائدة لهويدور، هناك في الشمال وفي أثناء الطريق. كان نصلها الكبير قد تخلخل، وتآكل لكثرة الشحذ حتى أصبح بحجم الريشة الضيقة، لكنه أصبح أكثر رسوخاً في المقبض المعدني. بهذا النصل قشر هويدور حبة البطاطا، وراح يأكلها، بعد أن قطعها شرائح صغيرة. لم يكن مذاق البطاطا النيئة مألوفاً بالنسبة لهويدور، لكن المذاق كان آخر ما يهتم به الآن، كان همه الوحيد أن يتناول شيئاً، لكي يخفف غلواء الجوع، لأنه لم يعد قادراً على السير في هذه الغابة الموحشة الجهمة.

على هذا النحو أكل حبات البطاطا الباقية (أصبحت جيوبه فارغة) دون أن يتمكن من التخفيف من جوعه ولو قليلاً. فهو لا يزال يريد أن يأكل، وخطر له أن يبحث عن الفطر. لا شك أن تناول الفطر النيء محفوف بالمخاطر، لكن ماذا لو أشعل النار... على الأرجح أن ذلك ممكن هنا. أم يبتعد قليلاً إلى عمق الغابة، أقرب إلى بوغوفيزنا، فهناك يصعب أن يكتشفه أحد.

بعد ذلك راح يضرب على غير هدى في غابة الشوح، وهو لا يتصور إلا قليلاً أين موقعه، بينما الغابة لا تنتهي، ولا أثر للفطر فيها. وفيما ندر كان يصادف نوعاً من الفطر السام القديم، المسود، من الواضح أنه صيفي، ولا شيء أكثر. ربما كان موسم الفطر سيئاً هذا العام - فكر هويدور، وهو يزداد اكتئاباً، بسبب سوء حظه هذا اليوم. بعد ذلك انعطف جانباً، أقرب إلى قرية تشيزلياكي الحرجية، التي كان يتصور أنه أصبح على مقربة منها. فهناك سوف تنتهي غابة الشوح هذه على الأرجح، وفي الأدغال هناك سيعثر على شيء ما. إن لم يكن فطر البوروفيك، ففطر سيرويشكي على الأقل. المهم أَلّا تكون الدواب قد رعت هناك، فحيث ترعى الدواب لا ينمو الفطر.

لم يكن قد وصل إلى تشيزلياكي بعد - حتى أنه لم يعرف ما إذا كانت لا تزال بعيدة - حين رأى على الطحلب المستنقعي بين أشجار الشوح شجرة عناب. بدت هذه الثمار، المنتشرة بكثافة بين الأوراق الصغيرة المصقولة، والتي لم يمسَّها أحد، على ما يظهر، بدت وكأنها بانتظاره قصداً. انقض هويدور على الشجرة، وبكل نهم راح يلتهم الثمار مع الأوراق والنفايات، كان يزحف على ركبتيه، ويجمعها بكفيه، ثم يضعها في جيوبه. صحيح أن العناب لم يشبع جوعه إلا قليلاً، لكن مذاقه كان لذيذاً، حامضاً. إنه المذاق، الذي ألفه منذ الطفولة،

والذي لم ينسه في الشمال. فبين الفينة والأخرى كان يصدف أن يعثروا على شجيرات العناب، التي أنقذت المنفيين أكثر من مرة من الجوع والأمراض. لكن مثل هذه الوفرة من الثمار نادراً ما كانت تصادفهم - فالثمار القريبة من القرى كانت تؤكل، وهي لا تزال خضراء فجة. وكم شعر بالأسف حين اكتشف أنه ليس لديه سوى ثلاثة جيوب سليمة - في البنطال والسترة، وهي لا تستوعب إلا القليل. حين امتلأت الجيوب، عمد إلى وضع الثمار في قبعته، وهو لا يزال يزحف على الطحلب، إلى أن قال أخيراً: كفى! لن تستطيع أكل هذا كله، وليس بوسعك أن تأخذ أكثر مما أخذت. ومن باب الاحتياط حاول أن يحدد موقع هذه اللقية السعيدة - خلف غابة الشوح، باتجاه قرية تشيزلياكي، فلربما يحتاج إليها لاحقاً.

تابع هويدور طريقه، وقد انشرح صدره قليلاً، وجيوبه ملأى بثمار العناب وكذلك قبعته. لكن إلى أين، هذا ما لم يكن يعرفه هو نفسه. كان يبدو وكأن لا نهاية ولا حدود لغابة الشوح، أم لعل هويدور ضل الطريق؟

على الأرجح أن ذلك ما حدث فعلاً. ولقد أدرك ذلك حين انقطعت الغابة فجأة، وانقشعت الظلمة أمامه، ورأى شريطاً عريضاً من نبات السعد، ومن خلفه ترامت الأدغال لأشجار الصفصاف ونبات العجرم وحرش من أشجار الحور الرومي. يبدو أن ها هنا تبدأ بوغوفيزنا، المشهورة بين السكان المحليين على أنها مكان متميز، يكاد يكون شيطانياً. فباسم بوغوفيزنا كان يرتبط كل ما هو غريب وفظيع. وبه كانوا يثيرون هلع الأطفال البكائين، والرجال السكارى، وفي ثورة الغضب كانوا يتمنون للخصم أن يغور في أرض بوغوفيزنا. وزعموا أن ثمة نفقاً أو مجرى تحت الأرض. يربط بين المناقع

المحلية وبين الأغوار والبحيرات الأخرى. فحين غرقت بقرة بيت ديمتري في بوغوفيزنا، وكان ذلك قبل الثورة، عثروا على جثتها خريفاً في البحيرة البيضاء، على بعد سبعة فيرستات من بوغوفيزنا، علماً أنه لا يوجد أي نهر سطحي يصل بينهما. كان المكان ملعوناً من الله وعباده. - مئات الفيرستات من المناقع والأغوار المستنقعية، التي لا يمكن عبورها، والمغطاة بأدغال الحور الرومي الذابل والقصب والنباتات المائية وفي بعض الأماكن نمت بكثافة شجيرات الصفصاف الفتية. منذ الأزمنة الغابرة والبشر يتجنبون المرور في هذه الأماكن، وإذا ما صدف ووجد أحدهم نفسه هنا عن غير قصد، فسيقع فيها بعد ضحية المخاوف، والهواجس التي تدفعه إلى الصراخ ليلاً. في الشتاء كانت بوغوفيزنا تتجمد قليلاً. لكن فتحاتها، التي لا حصر لها تبقى، حتى حين يضرب الصقيع أطنابه، مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد الهش، الذي يمكن أن يتحمل وزن الذئب فقط، لا وزن الإنسان. وفي ليالي كانون الثاني الصقيعية كان يتناهى من هناك عواء قطعان الذئاب الممطوط. وفي الأزمنة الغابرة كانت الدببة تعيش في الغابات المجاورة لبوغوفيزنا، فسببت الكثير من المضايقات لسكان قرى المنطقة. ولا يزال هويدور يذكر ما رواه له جده، في سنوات الطفولة، عن لقائه بالدب. فبينما كان في الغابة، هطل المطر مدراراً، فلجأ جده إلى تجويف شجرة بلوط، أحرقها الرعاة. كان كل ما في الغابة مجلبباً بغبش المساء، أما داخل التجويف فقد خيمت الظلمة تماماً. حين اندفع إلى هناك كائن أشعث، نتن الرائحة، انكمش الجد، وهو بين الحي والميت، وقد هصره الدب بظهره الأشعث العريض، فلم يعد قادراً غلى التنفس. وفي هذا المكان الضيق راح الدب يبحث عن وضعية مريحة، مما يدل على أنه ينوي البقاء هنا طويلاً. أما الجد فلم يكن ينوي البقاء، فقد كان عليه أن يعود إلى البيت، وقبل ذلك لا بدَّ

من العثور على الحصان، الذي تركه يرعى في مكان قريب، لكن كيف له الخروج دون أن يزعج هذا الضيف الثقيل؟ راح الجد يشغل فكره، بحثاً عن الطريقة المثلى، بيد أنه لم يجد طريقة أفضل من أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة من وراء الدب. وكما تندفع السدادة من الزجاجة، كذلك اندفع الدب من التجويف، تاركاً للجد رائحته النتنة. تلكم هي بوغوفيزنا.

توقف هويدور قليلاً لدى المستنقع، ثم ولى الأدبار بعيداً عن هذا المكان المميت، وعاد يضرب في الغابة على غير هدى. وحين شعر بالتعب من جديد، جلس تحت شجرة شوح صمغية غليظة، ووضع قبعته المعبأة بالعناب على ركبتيه، وراح يتناوله حبة حبة، وهو يفكر. يا لروعة أن يكون المرء في الغابة، وهو حر. ليس ثمة من يستعجلك، لا تحتاج إلى أحد، ولا أحد يحتاج إليك. لو كان بالإمكان أن يعيش المرء حياته كلها على هذا النحو. وإجمالاً على هذه الشاكلة عاش البشر في الأزمنة الغابرة - بصداقة وألفة مع الطبيعة والغابة، حيث كانوا يجدون فيها ما يقتاتون به في سنوات القحط، والملاذ الآمن في الملمات والمحن. فالغابة كانت تحمي وتدفئ وتطعم، وهي المتفضل الأحسن على بني البشر. لكن هذا كان في الماضي، أما الآن فقد حلت أزمنة أخرى - لا نجاة لك حتى في الغابة. البشر يجدون الأسباب دائماً ــ الحسد أو الحقد، فيعثرون عليك في الغابة، وحتى تحت الأرض. هذا ما أتقنه جيداً، وإن كان لم يلحظ كيف بدأ هذا، وما السبب الذي أدى إلى ذلك. وفي الطبيعة أيضاً، من يعرف مكمن السر، قد يحدث الشيء نفسه. وهنا تذكر حادثة وقعت له على نهر الشمال، حين كان يعمل في تعويم الأخشاب. فبينما كان جالساً ذات مرة في الكشك على الطوف، وهو يدفع الإسفين تحت الجذوع لشدها بإحكام، إذا بعصفور دوري يندفع عبر الباب المفتوح كالسهم، ويحط على كتفيه، ثم على

رأسه، ويرمي القبعة أرضاً. ومن شدة خوفه انحنى هويدور، وراح يلوح بيديه، لكأنه يحاول الاحتماء من الطائر، الذي لم يلبث أن ولى هارباً. وحين اندفع هويدور في إثره، أدرك السبب الذي جعل هذا الطائر يلوذ بالإنسان. فقد رأى سرباً من عصافير الدوري يدوم فوق الأطواف، وعلى الفور انقض هذا السرب، وكأنما بإيعاز، على العصفور الهارب، ودومت في الجو شليلة العصافير الهائجة، ولم تلبث الطيور أن مزقت الدوري المسكين إرباً، دون أن تترك منه أي أثر، باستثناء عدد من الريشات، راحت تحوم فوق الماء بهدوء. ودار السرب بحركة انعطاف حادة، ثم اختفى خلف الجرف الحرجي للنهر. وقف هويدور المشدوه يفكر: بأي ذنب؟ حتى الطيور؟ هل يعقل أن قانون الطبيعة الأزلي يكمن ها هنا - الجميع ضد الفرد؟ لكن لماذا على هذا بمفرده؟ وكيف أثار هذا الفرد غضب الجماعة؟ هل تصرف على نحو شاذ؟ هل أخل بأحد قوانين الطيور؟ أم لعله غير شبيه بالآخرين؟ لكن أليس من المحتمل أن المذنب ليس هو، بل السرب؟ كما عند معشر البشر؟ أولاً يحدث هذا لدى الطيور؟

ومع أن الأمور مختلفة لدى معشر الطيور، عما هي في عالم البشر، على الأرجح، فإن العدالة لدى الطيور، على الرغم من ذلك، أكثر. فهو لم ير في حياته سوى حادثة الطيور هذه، أما ما رآه من وقائع الجور البشري فحدث ولا حرج. يمكن القول إنه كان يراها يومياً.

هذه المرة ظل جالساً تحت شجرة الشوح فترة طويلة، واسترخى كأنه في البيت، حتى إنه أخذ سنة من النوم. وفي مكان ما فوقه، في أعلى الشجرة نعق غراب، بصوت قوي، فاستيقظ من غفوته. كل أفكاره كانت بعيدة عن غابة الشوح هذه - كانت هناك، في القرية. لقد فكر بها في الشمال، وهو يفكر بها الآن. كان يفكر ببيوتها ومشاغلها، كان يفكر بجيرانه، وكان يفكر بحقولها

المجبولة بالعرق. لم يكن يستطيع دخولها ببساطة، لكنه بأفكاره كان هناك باستمرار، وكان يشعر بانجذاب لا يقاوم يشده إلى هناك، على الرغم من الخطر الداهم.

وقبيل حلول المساء حزم أمره أخيراً، وسار من جديد عبر الغابة. سلك الطريق نفسه بين حرش الشوح، الذي طرده منه الكلب. كان يمشي حذراً، يتلفت حوله، وغالباً ما كان يتوقف، ويصيخ السمع لأصوات الغابة الغامضة أبداً. كان الهدوء والسكون يخيمان على المكان. وقبيل المساء هدأت الريح، على ما يبدو، حيث بدت أشجار الشوح مسربلة بالسكينة، لكأنها مستغرقة في التفكير في شيء ما. وخطر لهويدور أن القطيع، الذي أرعبه يمشي الآن بتثاقل نحو الزريبة، وأن الكلب الشرير يعمل جاهداً من أجل دفع البقرات المتخلفة للحاق بأقرانها. والبشر أيضاً يغادرون الحقول على عجل إلى مساكنهم. فلا أحد يريد قضاء الليل في الغابة، حتى مثل هذا الشريد المسكين، هويدور.

لم يكن قد وصل إلى طرف الغابة، حين بدأ الغسق يحط رحاله على الكون، فقد راحت الظلمة تتكاثف تحت أشجار الغابة، وتحولت الأجمة الأقرب إلى كتلة حالكة، أما الحشائش فأصبحت رطبة تحت الأقدام، فحث هويدور خطاه. وفي أحضان الغسق تجاوز المكان الذي هاجمه فيه الكلب، ولم يلبث أن خرج من الغابة. عندها امتد أمامه الحقل المجلبب بالغبش، ولم يكن ثمة قطيع في أي مكان. كان لا بدَّ للوصول إلى القرية من السير على طول الغابة عبر الطريق التي مهدها القطيع بحوافره. لكن الوقت كان لا يزال مبكراً للخروج إلى الحقل، فالظلام لم يخيم بعد تماماً، ولذا فقد جلس تحت أجمة في طرف الحرج. ظل جالساً. ومن جديد شرع يأكل عنابه، كي يمر الوقت بسرعة. وفي البعيد ظهرت المراعي وسياج القرية، الذي يعرفه بكل تفاصيله - بشجرتي

الكمثري في أرض بيتراكوف، وبكومة الأحجار على التخوم القديمة في نهاية المراعي. وهنا كانت تقع حصة أبيه، حيث سبق لهويدور أن اشتغل كثيراً. وإن كان أخوه الأكبر ميتكا قد عمل هنا فترة أطول. وكان ميتكا قد انتقل إلى دونباس مع بداية إشاعة التعاونيات. في البداية سافر وحده، ومن ثم أخذ عائلته، وغادر البيت نهائياً، تاركاً الأرض وكل ما يملك. واضح أنه لم يعد يستطيع الاستمرار في الحياة هنا، فأخوه كولاك منفي، ولذا فقد آثر النفي الطوعي. ترى كيف هي حياته الآن هناك، في المناجم؟ لم يكتب ولا مرة لهويدور في كوتلاس البعيدة، وبدوره لم يجرؤ هويدور على الكتابة له. أضف إلى هذا أنه لا يعرف عنوان أخيه. لقد تشتتت الأسرة، وتداعت أواصر القربى، فقد أصبح الأخوة غرباء، تلك الأزمنة هي التي حلت. لكن ما حدث مع الأخ يهون مقارنة بما حدث مع الابن أيضاً.

لم يتوقف هويدور عن التفكير في ميكولكا دقيقة واحدة، كان ذلك مصدر ألمه الدائم، ومحط اهتمامه الكبير. شيء جيد طبعاً أن ابنه تمكن من التنصل من العار الذي لحق بأهله، وحتى من بلوغ منصب رئاسي. لكن لا شك أن هذا الأمر محفوف بالخطر، وأنه يمكن أن يؤدي إلى الطامة الكبرى. كان قلب الأب يشعر أن وضع ميكولكا في غاية التقلقل، وأنه - على ما يبدو - غير مأمون، فكان يشعر برغبة عارمة في حمايته من المصيبة. لكن ماذا بوسعه أن يقدم له، وهو المهجر؟ أن يتبرأ من ابنه، ولا يذكر بنفسه لا بطلب ولا برسالة ولا بخبر قصير، لكأنه مات، أو لا وجود له في هذه الدنيا بتاتاً. المهم أن يكون ابنه ميكولكا سعيداً، وألَّا يلوم أباه على أي شيء أبداً. فلربما يحالف الحظ ولو هذا الأخير من أسرة روفبوي، التي تجاوزتها النجاحات الأخرى إلى الأبد.

خيم الليل البارد على الحقل والمراعي بهدوء. وبين السحب الممزقة في السماء ظهر قرص القمر المتلألئ. لكنه لم يتوقف طويلاً فوق الحقل، إذ لم يلبث أن تدحرج ليختبئ خلف طرف السحابة المشعث. ولم يمض من الوقت إلا القليل حتى برز من جديد، ولفترة طويلة راح يسكب نوره الفضي الوهمي الساطع على الحقل وحاشية الغابة والإنسان الواقف هناك. لم يكن هويدور يحب البدر، كان دائماً يثير قلقه بضوئه العجيب، ويوقظ هواجسه الغامضة المبهمة. والآن لم يكن ثمة حاجة إلى البدر الكامل، وراح هويدور ينتظر اختفاءه لفترة طويلة. كانت القرية وبيوتاتها تبدو غير واضحة المعالم من هنا، من طرف الغابة. فقد كانت تختبئ خلف أشجار الصنوبر في المقبرة، التي بدت كتلة سوداء عالية متلاصقة خلف المراعي. هناك كانت تسود الظلمة الدامسة، حيث يصعب تمييز الأشياء، حتى في ضوء القمر. لكن هويدور راح يحدق بالمعالم البعيدة لسياج القرية، فشعر بانجذاب كبير إلى المقبرة. ولم يكد القمر يختبئ أخيراً بين السحب، حتى بدا وكأن كل شيء قد انكمش، وأصبح داكناً. عندها نهض هويدور من بين الأدغال، وسار عبر الحقل على عجل. وفي هذا الوقت برز القمر من جديد، ولم يلبث أن اختفى خلف الغيوم، لكن هويدور لم يتوقف حتى بلوغه المقبرة.

كان سياج المقبرة القديم من جهة الحقل مكسوراً. لا شك أن البهائم هي من كسره، وهكذا فقد قفز من فوق الخشبة الدنيا السليمة، وتوقف. كان ضوء القمر الباهت، يفضض الأكداس غير المرتبة للصلبان والقبور، فتبدو وكأنها مغطاة بالندى الثلجي. كانت تلك على الأرجح قبوراً جديدة، وقد كان عددها كبيراً، ولم يكن هويدور يعرف أحداً من أصحابها. كانت الصلبان الكبيرة والصغيرة، وحتى المتناهية في الصغر، وركام القبور العارية من الصلبان، تشغل

كل الوهدة القريبة من المرعى. وعلى الصلبان الكاثوليكية العالية كانت تتراءى هنا وهناك شرائط بيضاء من الشيت، وطاقات الزهر الجافة في الأسفل. ولفتت نظر هويدور نجمة خماسية، مصنوعة من الخشب المعاكس، تبرز من بعيد بوضوح على خلفية السماء شبه النيرة. وبفضول مكتوم مر بحذر بين القبور، وصعق، وهو يقرأ، في ضوء القمر، اسم صاحب هذا القبر، المكتوب على لوحة سوداء: «إيفان سوكور». ومن تحته تاريخ الميلاد والوفاة. أمضى دقيقة ينظر إلى هذه الكتابة وإلى ركام القبر المنخفض، وهو في حيرة من أمره. كان من الواضح أن أحداً لم يكن يعتني به، فهو غير مسور، وقد نمت عليه النباتات بكثافة، فبدا مهملاً تماماً، وإجمالاً مثله مثل الكثير من القبور المجاورة. لكن تلك كانت، على الأرجح قبوراً قديمة، طوى أصحابها النسيان، أما هذا فيعود إلى شخص ينبغي أن يتذكروه في القرية. فحين تم نفي هويدور إلى الشمال كان سوكور هذا يساعد الرؤساء المحليين، وكان يبدو في تلك الآونة نشيطاً ومعافى تماماً. فكيف جاء إلى هنا، قبل الأوان، تساءل هويدور، وهو في حيرة من الأمر، ثم إنه لم يكن بالإنسان السيء، ولم يكن هويدور مستاء منه. ومع ذلك... من يدري فلربما لو عرف أن نهايته قريبة لكان سلوكه أفضل، على غرار أبيه، العجوز الهادئ والحصيف، الذي لم يكتف بأنه لم يتسبب في إلحاق الأذية بأحد، لكنه مد يد العون للكثيرين ساعة المحنة. فقد حدث أن آوى أسرة أخيه الذي قتلته الصاعقة. فأثناء العاصفة الرعدية احتمى أخوه تحت شجرة كمثرى في الحقل، ولقد بقي هناك. فعند المساء عثر عليه الرعاة، وقد فارق الحياة، وفي اليوم التالي دفن، تاركاً وراءه أرملة مع ستة أولاد صغار. عندها عمد سوكور العجوز إلى نقل الجميع إلى بيته، وسهر على تنشئتهم حتى شبوا عن الطوق. كان إنساناً جيداً. لكن ابنه لم يكن صنواً له، على ما يبدو. صحيح أنه لم يجر أذى كبيراً على الناس، لكنه كان لين العريكة كثيراً في منصب رئيس المجلس القروي، فكانت

قيادة المنطقة تحركه كما تريد. ففي اليوم الذي تم فيه نفي أسرة هويدور كان سوكور قد كلف بالإشراف على عملية ترحيل الكولاك المنزوعة ملكيتهم، بحيث لا يسمح لهم، حسب الأوامر، بأخذ أي شيء معهم، باستثناء المنشار والبلطة وبعض الثياب والقليل من الطعام، الذي يكفي لثلاثة أيام. أما الباقي كله - البطاطا والحبوب والأرزاق، المجبولة بالجهد والعرق على مدى سنوات، فقد صودرت لصالح المجلس الريفي. لو أن المصادرة جاءت للصالح العام - هذا ما فكر به هويدور، فيما بعد - لهان الأمر، لكن الهدف منها كان - بالدرجة الأولى - أن لا يترك شيء للمنفيين، وأن لا يأخذوا معهم شيئاً من المؤن في هذا الطريق البعيد، عسى أن يعاجلهم الموت هناك من الجوع والبرد. كانت أوليتشكا، ذات الستة أعوام، قد لبست جزمتها اللبادية الجديدة، التي أشتروها لها في البلدة الخريف الفائت. لكن الصغيرة صانتها طوال الشتاء، وظلت ترتدي جزمتها القديمة الرثة، على أن ترميها قبل حلول الربيع. لكن لدى الاستعداد للرحيل، أرادت أمها أن ترتدي الجديدة، فهم سيختلطون بالكثير من الناس، وكان بود الأم أَلَّا يكون لباس الصغيرة أسوأ من الآخرين. نزلت الصغيرة عند رغبة أمها، ومن سوء حظها أنها قبيل الرحيل كانت تقف على مدخل البيت في جزمتها السوداء الجديدة. لكن ليتها لم تقف هناك. فقد وقعت عينا المفوض الجشعتان، وهو رجل متجهم في معطف قصير أسود، على جزمة الصغيرة، فأوعز إلى إيفان سوكور بشيء ما. تردد سوكور، وحرك وجهه الحليق، لكنه دنا من الصغيرة وبلغ الأمر. وبكل خنوع خلعت أوليا الجزمة، ووقفت على الثلج، وهي لا ترتدي سوى جوربين ممزقين. ما إن رأت غانولكا ذلك حتى انخرطت في البكاء، وجلبت الجزمة القديمة من العنبر. وتمتم هويدور بينه وبين نفسه محتجاً: «أوف - ف - ف»، وعلى ذلك رد سوكور هازا كتفيه، وكأنه يقول: وما ذنبي أنا، إنها الأوامر. بعد ذلك رفع هذه الجزمة الصغيرة، وظل حاملاً إياها

إلى أن انتهى المرحلون من جمع أغراضهم، وودعوا ذويهم، أما هويدور فكان لا يكف عن التفكير بفعلته: يا للفظاعة - ترك الصغيرة حافية، ثم إنهم ليسوا إلى المناطق الدافئة سائرين، بل إلى الشمال. حيث البرد والزمهرير. لكنه لم يقل شيئاً. وارتحلوا. كانت أوليتشكا ترتدي جزمتها البالية. وقد ظلت ترتديها شتاءين آخرين، فأصيبت بالرشح، ثم مرضت، وبعد ذلك أصيبت بالرشح للمرة الأخيرة، عندها لم تعد بحاجة إلى شيء.

في تلك الآونة كانوا يدفعون الأطواف عبر النهر الشمالي العريض - قافلة كاملة عائمة من الأخشاب بآلاف الأمتار المكعبة من لب الخشب. كان عددهم ثلاثة عشر شخصاً في زمرة كوزنيتسوف، وهو رجل ملتح، متوسط العمر، أمضى حياته - على الأرجح - ينقل الأخشاب بالتعويم. كان يعرف النهر جيداً، كل منعطفاته، أماكنه الضحلة وشعبه، وكان ماهراً في تجنب الأماكن الصخرية الخطيرة، والسهر على متانة الحزم، وعدم الاصطدام بالصخور أو بالجزر الرملية شبه المغمورة. وفي تعامله مع الناس كان صارماً، قليل الكلام، لا يحب الكسالى وخائري القوى (لم يكن يفرق بين هؤلاء وأولئك). ومن الواضح أن هذا السبب كان وراء وصول هويدور إلى زمرته - كان آنذاك صلباً، صبوراً لا يعرف الاعتراض.

ومع هذا فقد ظهر سبب كاد يضع حداً لعمله في نقل الأخشاب. فبعد موت زوجته أصبحت أوليتشكا، ذات العشرة أعوام، وحيدة لا أحد يعتني بها، مما اضطر هويدور لاصطحاب الصغيرة معه. لكن وجود غرباء على الأطواف ممنوع منعاً باتاً، ولذا فما إن رآه كوزنيتسوف وبرفقته ابنته، حتى أرسله على الفور إلى الإدارة. لعله اعتقد أن هويدور سوف يعاند ويتوسل، لكنه حمل كيس متاعه، وأخذ ابنته من يدها،

وبعد أن قال: «إلى اللقاء» نزل إلى البر. ومن على الضفة ألقى نظرة أخيرة على النهر وعلى رئيس الزمرة، الواقف على الطوف صامتاً. وفجأة لوح كوزنيتسوف بيده، داعياً إياهما إلى العودة. وبكل خضوع عاد هويدور، كما غادر، وقال كوزنيتسوف بسرعة: «إبق، لكن احذر، إن وقعت، فأنا لا أعرف شيئاً. فاهم؟». «فاهم» قال هويدور باختصار، وهو في منتهى الفرح لهذا التحول في قدره. وبالفعل فقد ألف العمل في نقل الأخشاب، وهو معجب بالحياة الحرة على النهر، حيث الضفاف الحرجية من حوله، والسماء العالية الحرة من فوقه. لم يكن يخاف الأعمال القاسية، وكان يعتقد أن ليس ثمة ما هو أصعب من العمل في المخثة، أو تقطيع الأشجار في التايغا. من جديد سيصطحب أوليتشكا، ولن يشعر بعد الآن بقلبه يكاد ينفطر في كل مرة يضطر فيها إلى تركها وحيدة، فيشعر بالقلق عليها من أن تكون جائعة، أو من أن يزعجها أحد. حين كانت أمها على قيد الحياة كان كل شيء أكثر سهولة وطمأنينة، (وإن كانت أوليتشكا لا تغادر البراكة الباردة النهار بكامله، إلى أن تعود أمها من العمل في تقطيع الأشجار). أما الآن فلم يبق في القرية أحد من الأقارب أو المعارف، والناس هناك مختلفون، جيء بهم من مختلف الأرجاء، فكيف يترك الصغيرة بدون عناية. كان هويدور يشعر ببالغ الامتنان لرئيس الزمرة على طيبته، ولذا فقد أقبل على العمل في تعويم الأخشاب بكل همة ونشاط.

لكن لو عرف عما ستتمخض عنه هذه الطيبة، إذن لترك صغيرته في التايغا، في أول مستوطنة حرجية يصادفها، بين الغرباء، الذين لا يعرفهم. أوه لو أنه عرف...

على الأطواف لم تبق أوليتشكا دون عمل، فقد كانت فتاة خدومة ومثابرة جداً، فكانت تساعد هؤلاء الرجال الصارمين الصامتين، قدر المستطاع. وبعد

مرور عدة أيام عينها رئيس الزمرة مساعداً للطباخ كرافتس، وهو إنسان هادئ وديع، وكان الأكبر في الزمرة. وإجمالاً فإن كرافتس عامل الصغيرة بلطف، ولم يزعجها. صحيح أنه كان يصرخ بها أحياناً، إذا ما أخطأت في شيء، أو إذا ما تقاعست، لكنه صراخ خال من الضغينة. خال من الضغينة - هذا هو المهم، وذلك خلافاً لابن مدينته روغوفتسيف، الخبيث المخبول، الكثير الصراخ، والذي ينثر الشتائم المقذعة جداً، ذات اليمين وذات اليسار، لهذا السبب أو ذاك، وأحياناً دونما سبب، وأكثر الأحيان بسبب طبعه النزق أبداً. وفي كل مرة يسمع فيها هويدور هذه الشتائم، كان قلبه يكاد ينفطر. وكان يحاول قدر المستطاع حماية أوليتشكا من سماعها. فحين يبدأ روغوفتسيف شتائمه، كان هويدور يسارع إلى الحديث معها عن شيء ما قصداً، أو يرسلها إلى الجهة الأخرى من القافلة. لكن حدث ذات مرة أن هذا الأرعن راح يتحدث بحضورها بالسوء عن النسوة، الواقفات على ضفتي النهر، عندها نفد صبر هويدور، وعاتبه بكل تأدب بقوله إنه من غير اللائق قول هذا بحضور الطفلة، ولا بدَّ من مراعاة الأصول قليلاً. وعلى الفور صرخ روغوفتسيف قائلاً إنه لا يتلقى الأوامر من المنفي هويدور، وإن طفلته حثالة بالنسبة إليه، وإن من يحتفظ بالغرباء على الطوف يخالف الأنظمة، وتوعد بالإبلاغ عن ذلك في أول قرية يصلونها، وعندها سترسل الفتاة وأباها الحساس إلى حيث ستسمع الأسوأ من هذا بكثير.

ارتبك هويدور لدى سماع هذا الكلام المشين إلى حد أنه لم يجد ما يرد به عليه. كان يبدو أنه شاهد بما فيه الكفاية من الحقارات البشرية، لكن لم يسبق له أن رأى مثل هذه النذالة. وعند المساء، وبعد أن اجتازوا المنطقة الضحلة أوستيوجنيا، أخبر رئيس الزمرة بتهديد روغوفتسيف، ظناً منه أن رئيس الزمرة

سوف يؤازره، ويعاتب الحقير. لكن كوزنيتسوف اكتفى بأن قطب، وقال: «إن هذا لا يتورع عن فعل أي شيء». عندها سأله هويدور في حيرة: «طيب، وماذا علي أن أفعل»، فرد كوزنيتسوف، بعد أن رماه بنظرة صارمة: «إذا ما جاء غرباء - خبئ ابنتك». وسأل هويدور، وقد تملكته الدهشة: «وأين يمكن أن أخبئها هنا، على الطوف؟» «إذن تخبئها تحت الطوف» - قال رئيس الزمرة، ومشى فوق الأخشاب الزلقة نحو الكوثل. وقف هويدور لا يدري هل كوزنيتسوف جاد في كلامه، أم أنه يتهكم. لكنه لم يلبث، بعد أن تمعن في الأمر، أن أدرك إمكانية الاختباء فعلاً في الماء، تحت الطوف. فأولتشكا أصبحت تجيد السباحة، وسوف تتمسك بالأخشاب، عسى أن لا تغرق. لكن شيئاً واحداً كان يثير مخاوفه: فالصيف يشرف على نهايته، وبرودة الماء تزداد يوماً بعد يوم، ولم يعد بحارة الطوف يسبحون، فهم يكتفون بغسل الوجه صباحاً. كانت الأصباح تغدو باردة تماماً.

من يدري هل نفذ هذا الروغوفتسيف تهديده، لكن حدث ذات مرة أن صعد إلى الطوف شرطي من قوماندانية المنطقة، بقصد التفتيش. كان ذلك لدى توقف الأطواف، قبيل مقطع أوصيسفينسكي الضحل. لم تكن هذه المرة الأولى، التي يأتي بها المفتشون، لكنهم غالباً ما كانوا يكتفون بالشكليات: يطرحون بعض الأسئلة على رئيس الزمرة، يلقون نظرة عاجلة على ما حولهم، ثم يغادرون إلى الضفة على عجل. أما هذا الشرطي الدحداح، ذو الوجه الغليظ، الذي يرتدي معطفاً أسمر طويلاً، فقد أعلن، بعد أن تحدث مع رئيس الزمرة، عن نيته السير على الأطواف حتى الكوثل، عندها شعر هويدور بالخطر الداهم. كان يقف على الجانب الأيمن من الطوف حاملاً الخطاف، وعلى مسافة خمس أقدام منه كانت أوليتشكا جالسة في الماء، وهي متشبثة

بالحبل. وحده رأسها الصغير الأشقر كان يتأرجح على السطح، قرب الأخشاب. فجأة توقف المفتش وسط الطوف، وراح يتأرجح بتراخ فوق الجذع الضخم، وشرع يتحدث مع رئيس الزمرة عن حيل صيد السمك هنا، وبأية صنارة ينبغي صيد السلمون في الخريف. لم يكن الوقت متأخراً، لكن وقت الظهيرة انصرم منذ عهد بعيد، ومن الشمال كانت تهب ريح باردة. كان هويدور يصغي إلى هذا الحديث الفارغ، الذي تطاول كثيراً، وقد نفد صبره، وتوترت أعصابه. لكن ها هما، على ما يبدو، يهمان بالعودة نحو الضفة، فها هما يرجعان، ويخطوان... لكنهما توقفا من جديد. كان المفتش يقول شيئاً ما لرئيس الزمرة، وهو يشير إلى القرية، بينما هويدور ساكت، وهو يشتم في سره: ليتك تفطس، أيها الكلب البطران. لا شك أن أوليتشكا قد تجمدت من البرد في الماء تحت الطوف، بينما المفتش يسير ببطء عبر الأطواف الثابتة، يتوقف باستمرار، يتحدث ويتحدث. وفيما بعد راح يدور في مكانه عند الضفة، وهو لا يكف عن تفحص النهر. أما هويدور فكان يقف، وهو يفكر بتوتر: هل وشى روغوفتسيف، أم لا. أخيراً اختفى المفتش خلف الأجمة، القريبة من الضفة. وبصعوبة بالغة أخرج أوليتشكا من الماء - كانت المسكينة قد ازرقت من البرد، وكانت أسنانها تصطك، ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة. بيدين ترتعشان راح الأب ينشفها بالجنفاص الغليظ، ويفرك كتفيها النحيلتين وصدرها الضامر. كان لا بدَّ من إلباسها الثياب الجافة، فخلع سترته، ودثر بها ابنته. جاء كوزنيتسوف، وإذ ألقى نظرة، أدرك كل شيء، فخلع معطفه القصير قائلاً: هاك، غطها. شكراً له، فقد غطاها. بعد ذلك سارع كرافيتس فغلى الماء، وسقاها - بدا وكأن الصغيرة قد استدفأت قليلاً.

وليلاً أرقدها في مكانها المألوف - خلف الكشك، على أسمال بالية، ودثرها بالجنفاص، وبمعطف رئيس الزمرة. وقد غفت، إذ شعرت بالدفء، وراح، وهو جالس إلى جانبها، يفكر: ربما ستنجو. لكنها لم تنج. فقبيل الصباح بدأت الحمى، وتوهجت الصغيرة، وراحت تطلب الشرب، وتشكو من وجع رأسها. سقاها ماءً دافئاً. لم يكن لديهم شيء آخر، غير الماء - لا دواء ولا أية أعشاب. عند الصباح أخذتها سنة من النوم، لكنها كانت تشتعل، وهي نائمة، بينما كان عليه أن يبدأ نوعه.

وقال رئيس الزمرة: «أمامنا أصعب مقطع من النهر، وعلى الجميع أن يكونوا حذرين». لكن الحذر لم ينفعهم، فقد اصطدم الطوف الأخير بالصخور، بصعوبة بالغة تمكنوا من تحريكه بحلول الظهيرة. وخلال هذا الوقت تمكن من كسب عدة دقائق، وعادها، خلف الكشك أكثر من مرة، وفي كل مرة كان قلبة ينفطر. فقد كانت حالة أوليتشكا سيئة. وكما لو أن الأمر متعمد، فعلى جانبي النهر كانت تسبح ضفاف التايغا الموحشة، وتمتد المنحدرات البرية، ومن فوقها تجثم الغابة الوسنى. لم يكن ثمة من أثر للسكن البشري. كان رئيس الزمرة يرى مصيبته، فقال له، من باب التعاطف، على ما يبدو: «في نهاية الأسبوع نصل إلى ميزا، حيث يوجد مستوصف، وبوسعك أخذ الصغيرة إلى هناك». بفارغ الصبر انتظر هويدور ظهور هذه الميزا، انتظرها نهارين وليلتين، لم يغمض له فيها جفن، ولم يضطجع، تارة يدير الخطاف، وأخرى يجري عبر الأطواف المتقلقلة إلى الكشك. كانت حالة أوليتشكا من سيِّئ إلى أسوأ. وفي اليوم الثالث لم تعد تتعرف عليه، واكتفت بالطلب منه أن يطرد الطيور، فتملكته الدهشة: عن أية طيور تتحدث؟ ولم يلبث أن أدرك أنها تهذي، وفي الليلة التالية لاذت

بالصمت، وهدأت تماماً، ثم غادرت هذا العالم بهدوء. كما الطائر المشرق الصغير، رحلت روحها الطاهرة البريئة إلى اللاوجود.

حتى الظهيرة ظلت ترقد في المكان نفسه، على الخرق البالية، خلف الكشك، لا يعرفون ماذا يفعلون بها. أخيراً انتزع رئيس الزمرة ثلاثة ألواح خشبية من أرضية الكشك، وأوعز لكرافتس بصنع تابوت. وقام هذا بصنعه فعلاً - فجاء على شكل صندوق صغير متطاول، وفيه وضعوا جثمان أوليتشكا البارد. لكن أين يدفنونها؟ الماء في كل مكان، والأطواف لا تستطيع الدنو من الضفة، فما العمل؟ عندها اقترح رئيس الزمرة دفع الطوف الأخير قليلاً نحو المكان الضحل، عند المنعطف(لم يكن بالإمكان إيقاف هذا العملاق) وحمل التابوت الصغير عبر الماء الضحل إلى الضفة. قفز هويدور من على الطوف. وناولوه النعش الصغير، وهو واقف في الماء حتى صدره. وفي طريقه إلى اليابسة غطس أكثر من مرة في الماء. أخيراً، وبعد لأي، تمكن من تسلق الجرف. ثم راح يتلفت من حوله. كانت غابة الشوح والتنوب ترتفع جداراً شاهقاً في كل مكان، وهنا أيضاً لم يكن ثمة من أثر للسكن البشري. وعلى الجرف رأى منخفضاً عميقاً، وبالقرب منه تكون رأس صغير مستو، وإلى هذا الرأس حمل النعش الصغير، ثم شرع في حفر القبر. كان الحفر شاقاً، وقد استغرق وقتاً طويلاً، فالتربة صخرية. ولم يعد يتمالك نفسه، فأطلق لدموعه العنان. فلقد سلبته الحياة سعادته الأخيرة، مصدر عزائه الوحيد، وراح يتساءل عما يمكن أن ينتظر منها لاحقاً، وماذا بوسعها أن تنتزع أيضاً. بعد كل ما جرى له فقدت الحياة قيمتها بالنسبة إليه، ولم يعد يحرص عليها، وأصبحت عبئاً. لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ هل ينتحر شنقاً؟ أو غرقاً؟ كان بإمكانه آنذاك أن يلوذ بالفرار، لكنه لم يكن يريد

أن يخيب أمل رئيس الزمرة، وهكذا فقد دفن ابنته على عجل، ثم انطلق يجري وضفة النهر.

لحق بالأطواف مساء، في وقت متأخر. ولفترة طويلة ظل لا يستطيع النظر إلى روغوفتسيف، ويرتعش بمجرد سماع صوته. لم يستطع أن يفهم كيف يتعامل الآخرون ورئيس الزمرة أيضاً مع هذا الشخص، وكأن شيئاً لم يحدث بالنسبة إليهم، أم لعلهم لم يكونوا يفهمون شيئاً؟ أم تراهم يخافونه؟ أم لعل ثمة سبباً آخر؟ وعلى الرغم من ذلك فقد تعاطفوا مع هويدور. كان كرافيتس يهز رأسه، وهو يتأوه بصوت منخفض. أما رئيس الزمرة فقد ظل متشبثاً بالصمت بعناد. كان يبدو وكأنه لا يفكر بأي شيء، باستثناء أطوافه. حين وصلوا أخيراً إلى كوتلاس، وباعوا قافلتهم في بورصة الأخشاب، بدا وكأن رئيس الزمرة قد لان، وأصبح أكثر ميلاً إلى الحديث. ولدى عودته إلى البراكة مساء، ذات مرة، لوح لهويدور برأسه خلسة، وقاده إلى ما وراء مبنى المستودع، حيث لم يكن ثمة أحد، وسأله بصوت ضعيف: هل تحتاج إلى وثيقة؟... «أية وثيقة؟» - لم يفهم هويدور قصده. «أية وثيقة - هاك امسك» - قال كوزنيتسوف بنزق، وبعد أن تلفت حوله، دس في يديه ورقة مطوية على شكل مربع، وأردف بطيبة: «كنت أحتفظ بها لنفسي، لكنني أرى أنها ستلائمك تماماً».

أخذ هويدور الوثيقة، التي تحمل اسم أندري فوميتش زايتسيف، ولقد استفاد منها فعلاً، بعد فترة قصيرة. كان ممتناً جداً لرئيس الزمرة، لولا ذلك الثمن، الذي دفعه لقاءها. فكان هذا الثمن الباهظ يقف حجر عثرة في طريق امتنانه، وأحياناً كان يخطر له أن أي شيء لا يساوي شروى نقير، بالمقارنة مع فقدان صغيرته.

في الفجوات بين السحب فوق الحقل، كان القمر يسطع بارداً متألقاً، فيلقي، بشكل منحرف، بالظلال المنكسرة للصلبان فوق القبور. وأبعد من ذلك، تحت أشجار الصنوبر، كانت تسود الظلمة الحالكة، وتمتد بظل عريض، يصل إلى أطراف المقبرة، فوق المراعي. لكن كل شيء في الجوار كان مرئياً بوضوح - كل صليب وكل مرتفع قبر. وحين كان القمر يختفي مرة أخرى، خلف السحابة، ويغرق كل شيء في الظلام من جديد، كان يبدو وكأن هويدور أغمض عينيه، وهو يقف كالأعمى وسط القبور. وإجمالاً فقد كان يشعر هنا بالراحة والسرور. كان يبدو وكأنه استعاد فعلاً الارتباط المنقطع مع بني البشر، وهو يدير معهم حديثاً صامتاً، يناقشهم ويسألهم حول كل شيء، ويشكو لهم. صحيح أنه كان يأسف لأنه لا يتلقى منهم جواباً، لكنه أصبح معتاداً على أن لا يتلقى الجواب على أسئلته الصامتة، لكأنه أصم على مدى سنوات ترحله اللامعقول. وأثناء تطوافه عبر المقبرة، وهو غارق في التفكير، صادف قبراً حديثاً - على السفح، بالقرب من تلة الصنوبر. حتى ليلاً يبدو هذا القبر ملفتاً للنظر لشدة العناية به. طبقة من العشب تسوره، ومن حوله نثرت طبقة من الرمل النظيف الحديث العهد، فبدا تحت نور القمر أبيض تماماً. وهنا أيضاً - يرتفع صليبان ثمانيا الأطراف - أحدهما كبير والآخر أصغر حجماً، وكلاهما مطليان بعناية باللون الأبيض. وبالقرب منهما غرز في الأرض مقعد صغير، كأنه لعبة، وعليه جلس هويدور. لم يكن يعرف هوية المدفون هنا، لكن لا بدَّ أنه ليس بالرجل العجوز، ولا بالمرأة العجوز، فمثل هذه العناية لا يحظى بها العجائز. لعلها زوجة بذلت قصارى جهدها للعناية بقبر زوجها المحبوب؟ لكن من المستبعد أن تقوم المرأة بكل هذا بمثل هذا الإتقان والجودة. إذن لعله زوج لزوجته؟ لكن الأرجح أنهما الوالدان لولدهما - إن ذلك هو الأصح من

بين كل الاحتمالات. غير أنه لم يكن ثمة أية شاهدة - قبر مجهول، مسجل فقط في قلوب ذوي الراحل.

أما لدى طفلته أوليتشكا فلم ينج حتى ركام القبر... تطاول الليل القمري الساكن. وقبيل الصباح مال الجو إلى البرودة، وفكر هويدور، وهو جالس باكتئاب حذاء القبر الغريب المجهول، لا بدَّ أن الصقيع أصبح وشيكاً. لم يكن يشعر بالرغبة في مغادرة المكان، فهنا كان يشعر أكثر من أي مكان آخر، أنه في أمان تام. وهنا لم يكن يشعر بالقلق. وعلى ما يبدو فإن القمر قد اختفى قبيل الصباح، فحلت ظلمة القبر من حوله. لكن هويدور كان معتاداً، منذ عهد بعيد، على ظلام الليل، ولم تكن الظلمة تخيفه. وهكذا فقد ظل جالساً يتذكر ويفكر، وراح يتناول العناب الحامض، وهو ينقي من جيبه بتقتير حبتين أو ثلاثاً. لم يلحظ كيف أخذته سنة من النوم. وكما هي العادة، فقد أزعجه البرد. لم يستطع التآلف مع البرد أبداً، وخاصة على أبواب الشيخوخة، وفي ظل سوء التغذية ــ فلقد عانى منه في الحرب، في المنفى، وهنا الآن في موطنه. إن سبب ذلك على ما يبدو، يعود إلى أنه قدر له في حياته أن يعاني من البرد، كما لم يعان أحد غيره: فهو لم يكن يجيد التدفؤ، كما الآخرين، من خلال التصفيق باليدين والقرفصة والدبدبة. في البرد كان يفقد حركته، ويصبح كما المتخشب، يتوتر بكل كيانه وينكمش - يتحمل صابراً. كما كان يتحمل الجوع، الاذلال واليأس. كانت كل جهوده على مدى سنوات عديدة تذهب على شيء واحد - التحمل. لم يكن ينفجر كما البعض، حين كان يبدو وكأن الصبر لم يعد ممكناً، ولم يكن يحتج على الطعام الرديء، ولا على العمل الذي لا يطاق ولا على الجور البشري - كان يكتفي بالكز على أسنانه، حين كانت هذه لا تزال لديه، وظل يتحمل. على الأرجح

أنه لم يكن ثمة في الدنيا من عمل شاق، لا يستطيع تعلم تحمله بصمت. شيء واحد فقط كان عصياً لديه على التحمل - الشوق إلى موطنه الأم، غابته، والمناظر الغابية، التي تفتقر إلى الروعة. هنا لم يكن قادراً على التغلب على ذاته: فقد كان يصبو بكل كيانه، مستهيناً بكل شيء، إلى العودة إلى الديار، في البداية بالأفكار فقط، ومن ثم بالفعل، كما هو الآن. في المرة الأولى لم يكتب له النجاح، وفي الثانية، لم يحالفه الحظ، لكنه بلغ مرامه في الثالثة، والآن أصبح ينشد راحة القلب. وإذن فأي ضير من البرد. كان عليه، على الأرجح، أن يبتعد إلى الغابة، كيلا يراه أحد صباحاً. لكنه، وقد أضناه الوسن، راح يتباطأ، ويماطل، ويتمهل في مغادرة المقبرة، التي لا تزال مدثرة بظلمة الفجر. ولم يمض إلا بعض الوقت حتى لاحظ أن الظلمة بدأت تلملم أذيالها، فها هي أشجار الصنوبر تبرز من الظلام، وكذلك القبور والصلبان القريبة، فأدرك أن النهار يبزغ، فها هي أولى تباشيره تتجلى في طرف السماء، فوق الغابة. نهض هويدور من على المقعد، وفجأة تملكته فكرة متهورة: أن يقوم بهدوء، الآن بالذات، في هذا الوقت الباكر، والقرية لم تستيقظ بعد، بالمرور في الشارع - فمن يدري، ربما تكون هذه المرة الأخيرة، وقد لا تتكرر فيما بعد. ومن يدري فقد لا يرونه الآن.

مشى في درب ضيق بين القبور، عبر الظلمة الخفيفة تحت أشجار الصنوبر، ثم نزل إلى شارع القرية. كانت أسطح المنازل وذرى الأشجار في الشارع والحواكير قد بدأت تشق سجف الظلام. أما الشارع والباحات فكانت لا تزال غارقة في غبش الفجر، وكانت البيوتات الريفية لا تزال مجلببة بهدوء الصباح الباكر، وكان الغبش الرمادي يلوذ بها تحت أسطحها المتدلية، بين الحظائر والأبنية المنتشرة في الأحواش. وصل هويدور إلى وسط القرية بهدوء. كان هواء الصباح يهز خرقة

مبرقشه، ذات شرائط حمراء، معلقة على عيدان السياج، ودار في خاطر هويدور: إن ضوء النهار ينتشر بسرعة، يبدو أنني تأخرت. وهكذا حث خطاه، وسار على جانب الطريق، وحذاؤه يخفق بخفة على العشب، وهو لا يكف يتلفت بنهم حذر في كل الجهات - كان بوده أن يشاهد ويعرف الكثير. وفجأة تسمرت نظرته بذهول على وجه نسائي ساكن خلف السياج، وكانت العينان المصوبتان نحوه قد تكورتا أيضاً في خوف، مشوب بالذهول. أما التعبير فلا تدرك كنهه. وراوده هاجس مفاجئ: إنها لوبكا! فتوقف، وبجواره، على بعد خطوتين رأى البوابة، فدفعها بحدة، دون أن يعرف لماذا، فانفتحت. نظرت إليه المرأة لثانية، ومن غير المعروف إن كانت قد عرفته، أم لا، وأطلقت صرخة مخنوقة، ثم اندفعت نحو البيت. أما هو فقد سمره الخوف، وظل واقفاً لدى البوابة، إلى أن سمع صوت الباب يغلق وصليل الرتاج الحديدي.

وخوفاً من أن يخرج أحدهم إلى المدخل، أو يراه من النافذة، انطلق هويدور عبر الحوش، وجرى عبر الحاكورة، بين أوراق الشمندر المكسوة بالندى، فإلى الحقل. لم يطارده أحد، وحتى لم يناده من الخلف. كان يرتجف بكل كيانه، بعد هذا اللقاء المفاجئ مع لوبكا، التي ترعرع وإياها في القرية، وعملا سوياً في أرض الآباء، حتى إنه كان عاشقاً لها، قبيل دعوته إلى الخدمة العسكرية. كان يشعر بالقهر والمرارة... لا شك أن المرأة خافت، وكادت تودي به إلى التهلكة. لكن لعلها لم تعرفه، وحسبته لصاً ليلياً، حرامياً. وليس ذلك بغريب، فهل كان من شأنه هو أن يعرف نفسه؟ ما الذي بقي لديه من هويدور روفبا الساذج الصامت السابق؟ إنه الآن شبح، أكثر منه إنساناً، وطيف ليلي لا مادي، يتجنبه الناس بخوف، ولا مكان له إلا بين الذئاب في الغابة...

* * *

الفصل الرابع

فرح الأرض

حين استنار الكون، كان قد أصبح في الغابة، يسير كالضائع، عبر الدرب الذي مهدته القطعان، وهو يتلفت، بحثاً عن مكان يلوذ به نهاراً. لا شك أنهم سيسوقون القطيع إلى هنا من جديد - ولا مكان له هنا، فأين إذن؟ بالطبع، بعيداً عن السكن والبشر والحقول وحصادي الحشائش. إذن عليه من جديد أن يذهب إلى منطقة قطع الأشجار، أو إلى غابة الشوح الكئيبة البعيدة، حيث الطحالب المستنقعية. وقرر، بعد أن فكر ملياً: الأفضل إلى منطقة قطع الأشجار. صحيح أن المكان أكثر خطورة منه في غابة الشوح، لكن البطاطا تقع في تلك الناحية، ولا بدَّ من زيارتها. وكما هي العادة. فمنذ الصباح بدأت «عصافير بطنه تصيح» - إنه جائع. ليلاً أتى على العناب كله تقريباً، لكن العناب لا يسد الرمق، وإن كان يروي الغليل. لا بدَّ من الذهاب في طلب البطاطا.

في هذا الوقت الباكر لا خوف، على الأرجح، من أن يصادف أحداً في الغابة، ولذا فقد قطع فيرستا، أو أكثر عبر الدرب المطروق جيداً، والمتعرج كثيراً في حرش أشجار البتولا الفتية. انعطف الدرب باتجاه الأراضي الشتوية، فسار نحو شعب دولغوي.

وبعد أن تجاوز الغابة، حيث أشجار الشوح النادرة، صعد إلى الأعلى عبر السفح، ذي الانحدار التدريجي. كانت الغابة تسبح في النور، الساطع كما في النهار، ومن حوله كانت أشجار الشوح تغفو بهدوء، ولم تكن تتحرك أية ورقة على أشجار البتولا، التي وخطتها الصفرة. يبدو أن الطقس قد استقر، وعلى الأرجح أن الصقيع سيحل عما قريب. حينئذٍ تسودُّ أشجار الحور الرومي، وتبرق البتولا ذهباً، ويتردد حفيف الأوراق المتساقطة. وبعد ذلك بقليل تصبح الغابة المورقة عارية، ويصبح كل كائن حي فيها مرئياً من مسافة بعيدة. حينها سيسوء وضعه... لكن هويدور لم يكن يرغب في التفكير في المستقبل، كان يعيش يومه فقط، ولم يكن ينظر إلى أبعد من الأمسية القادمة. لا شك أن الوضع في المساء أكثر طمأنينة، أما في النهار فيجب أن يبقى حذراً.

وفي المكان نفسه، على ما يبدو، وكما في المرة الأولى، نزل عبر الأجمة إلى غور الوادي العريض، فشرب من الجدول، وغسل وجهه ويديه. استغرق صعوده السفح المقابل وقتاً طويلاً، كان يتوقف ويرتاح، وهو يشعر، ليس للمرة الأولى، بقواه وقد دب فيها الوهن. فحين جاء إلى هنا، منذ عهد قريب، لم يشعر بالضعف، لا شك أن قوة الهدف الكبرى هي التي كانت تحركه. أما الآن... فالهدف تحقق. وخلال الأيام الطويلة من الترحال ضعف بدون الخبز، فالثمار لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذن - هل يذهب إلى القرية من جديد، ويطلب رغيفاً من الخبز. كيف سينتهي هذا؟ كان يشعر بالخوف من لقائه للتو بلوبكا - المهم أَلَّا تنشر الخبر في القرية. لكن ربما لم تعرفه، ما دامت قد أطلقت تلك الصرخة الفظيعة؟...

لفترة طويلة لم يستطع التقاط أنفاسه، بعد خروجه من الوادي. بعدها تعمق في الغابة، حيث عثر على مكان مناسب، على ما يبدو - بين أجمتين من أشجار البندق، تلامست ذراها. وقبل أن يضطجع تفحص الأغصان من كل الجهات، عله يعثر على بعض ثمار البندق، لكنه لسوء حظه لم يعثر على ما يؤكل. صحيح أنه صادف على الرابية بين الأعشاب بعض الفطور - الصيرايشكي والفلنوشكي، والموخومور، ذات القبعات الحمراء، وهذه الأخيرة كانت أندر، ودار في خلده أن الفطور الحقيقية لن تلبث أن تظهر عما قريب. لكن أكثر ما كان يشغل تفكيره هو البطاطا، ما دامت لا تزال في الحقول.

إن لديه حكاية لا تسر الخاطر مع البطاطا، أثناء وجوده في الأسر الألماني - والآن حتى تذكرها مضحك. لكنه يتذكرها أحياناً. على الأرجح أن الفرح والترح في ما مر به الإنسان متجاوران دائماً. خلال الأشهر الستة الأولى من الأسر كان طعام روفبا يقتصر على اللفت المسلوق، الذي كان يتناوله على الطوى في مصنع لصب الزهر في رور. وبعد ذلك ابتسم له القدر، عندما نقل للعمل لدى باوير. كان ذاك كهلاً ألمانياً اسمه يهان، وكان لديه ولدان يحاربان على الجبهة الروسية، ولم يبق في البيت سوى كنته وحفيديه المراهقين. كان يملك نحو العشرين هكتاراً من الأرض، ولكي يستثمرها، أخذ ستة عمال زراعيين من بين الأسرى الروس، جنود الجنرال سمسونوف. وإجمالاً لم يكن وضع هويدور لدى باوير بالسيِّئ. كانوا يطعمونهم جيداً، وإن كانوا قد أرغموهم على العمل طويلاً، مع حرمانهم من العطل الأسبوعية والأعياد. فكانوا يعملون كما الشياطين، كما الثيران. زاولوا مختلف الأعمال، في الحقول والبيادر، وحتى في تدبير شؤون المنزل. كان يهان يعتمد نظاماً صارماً، كما نظام الثكنات، يسهر على

تطبيقه بنفسه، وهو الذي سبق له أن خدم برتبة مساعد، وبهذا كان يذكر الأسرى باستمرار، أما العمل في الحقول فكان بإشراف الكنة. كانت هذه تطوف الحقول على فرس شقراء أليفة، وهي تتفحص كل شيء، فتعاقب هذا، وتطري عمل ذاك. كان المالك يعتني بهم، ويربيهم بأسلوب مميز، أسلوب المساعد، على ما يبدو. ففي ذات مرة عاقب الطاهية لأنها نقلت اللحم إلى قدر الحساء، وكان الحرمان من الميتاغ (الغداء) من نصيب من يغش في العمل، يكفي أنك تناولت الفطور صباحاً. وفي ذات مرة شكا بيلوشيف، وهو من مدينة تولا، شكا للسيد من أن زميله الأسير سرق علبة سجائره، فما كان من الهر يهان إلا أن سارع، دون دراسة الأمر، إلى معاقبتهما كليهما. فقد أمر العاملين أن يمسك كل منهما الآخر باليد اليسرى، وكأنه يصافحه، ويضربه باليمنى على أذنه، وهما يرددان: «غوتن مورغين - غوتين تاغ» (صباح الخير - مساء الخير)، بينما كان جميع العمال والطاهية أيضاً والمالك مع الكنة والحفيدين جالسين على مصطبة المدخل، يتفرجون. في البداية كان مسلياً حتى، وأنت ترى الأسيرين الروسيين يضربان بعضهما بعضاً ضرباً خفيفاً، لكن بعد قليل اضطروا إلى تفريقهما لأن الحماسة دبت فيهما، وأوشكت الضربات أن تصبح دامية.

كل يوم كانوا يستيقظون في الخامسة صباحاً على جرس المناوب، فيغطون أسرتهم الخشبية بالبطانيات بعناية، ويشربون القهوة مع المربى والخبز، ويباشرون العمل. وعلى الغداء كانوا يقدمون لكل منهم صحناً من الحساء، العصيدة مع اللحم، والخبز بمقدار نصف رطل للشخص. كانوا ينامون على شراشف نظيفة، كانت الطاهية تبدلها كل سبت، وفي السبت أيضاً كانوا يغتسلون تحت الدوش الدافئ في الملحق. وكان بيلوشيف، الذي ارتبط مع

هويدور بأواصر الصداقة، سعيداً جداً بهذه الحياة، وغالباً ما كان يقول إنه في البيت لم يكن ينام بمثل هذه النظافة، ولم يكن يأكل حتى الشبع، على غرار ما يأكل في هذا الأسر، أما العمل، فالعمل الفلاحي بالنسبة إليهم ليس بالجديد. وإجمالاً فإن كل شيء لم يكن بالسيِّئ حقاً، لولا رودي، حفيد يهان، ذو الأعوام الأربعة عشر.

لم يكن هذا الوغد رودي يكف عن ابتكار المقالب القذرة لمضايقة الروس. تارة يسند بالمذراة باب المرحاض، حين يكون أحدهم في الداخل، وتارة يخبئ قشاط الوصل، حين ينبغي كدن الحصان، وتارة أخرى يضع إبريق الكفاس تحت ذيل المهرة، وفي ذات مرة قام خلسة بإخراج المسمار القارن من الشاحنة المحملة بالبطاطا. ولم يكد هويدور ينطلق بالشاحنة، حتى انقلبت الشاحنة وتبعثرت البطاطا. وبينما راح هويدور يجمع البطاطا، وهو يشتم، كان هذا الرودي يصهل في الحاكورة بكل حقارة. خرج هويدور عن طوره وضربه من فوق الحاجز بالسوط، ثم سوى الشاحنة، وانطلق إلى الحقل، دون أن يقول شيئاً لأحد. ولدى عودته مساء إلى الحوش، رأى على مسطبة المدخل المالك العجوز، وهيردا الحمراء، من شدة الغضب، والوغد رودي والجرح الدامي، يزين خده كله. وعلى الفور بدأ يهان العجوز التحقيق، حاول هويدور تبرير فعلته، لكن أحداً لم يصغ إليه. وقالت الكنة شيئاً ما بخصوص السجن، لكن عمها أعلن أنه لن يكون هناك سجن. لا يمكن أن يوافق، والعمل قائم على قدم وساق، أن يجلس أحد عماله في السجن، يأكل ويشرب عبثاً، أو يرقد على التخت ومؤخرته مثخنة بجراح الجلد، وأنه سيعاقبه، بدلاً من ذلك، بالعار. فغداً سوف يذهب فيدير إلى العمل بدون بنطال («فينيغر آلس هوزي»).

في البداية لم يفهم هويدور - ما المقصود بهذا العقاب الغريب؟ في السروال الداخلي فقط؟ لكن تبين أنه ليس في السروال الداخلي، بل النصف السفلي، كما ولدته أمه. لم يكن الطقس بارداً، كانت الشمس المرحة دافئة، لكن لم يكن ثمة حدود لمعاناة هويدور. فقد كان لا يكف عن شد ردن قميصه القصير، محاولاً عبثاً ستر عورته الذكرية، لكن ذلك مستحيل، فلا بدَّ من العمل، من تحميل الشاحنة بالبطاطا ونقل الحمولة إلى الحقل. ومن حوله كان الناس في كل مكان الألمان والألمانيات وأولادهم، المراهقون والفتيات، الجميع كانوا يقهقهون، أو ينظرون إليه بدهشة، أما هو فكان يكاد يئن من القهر. أخيراً حل مساء ذلك اليوم، الذي لا نهاية له، ولم يكد يصل إلى تخته حتى دس نفسه في الفراش، دون عشاء. يا للسعادة في أن تشعر أن جسمك خاف عن أعين الغرباء. كان آنذاك في عامه الواحد والثلاثين، وهو متزوج، وكان يظن أن ذلك العقاب هو الأسوأ من نوعه، لكن السنوات مرت، وتوالت عقوبات الذل والهوان، التي يبدو ابتكار الهر يهان لا أكثر من نكتة تافهة، بالمقارنة بها.

ابتلع هويدور لعاب الجوع، والتف على نفسه فوق العشب القصير النادر تحت الشجيرات، فوضع رأسه داخل ياقته المدعوكة - المكرمشة، ودس يديه في عبه، وظل مستلقياً على هذا النحو. بين الفينة والأخرى كان يغمض عينيه غير خائف من أن يفوت شيئاً، فالأدغال لا تسمح برؤية الكثير. وبالمقابل فقد كان سمعه، كما هي العادة، مرهفاً جداً حتى، وهو نائم، كان هويدور يصيخ السمع، وإلا كيف يحمي نفسه في وضع كهذا. كانت الأشجار تصدر حفيفاً خفيفاً بالقرب منه، لكن هذا الصوت لم يعكر صفو الهدوء المخيم على الغابة، المألوف بالنسبة لهويدور. وفي بعض الأحيان كان عصفور صغير يرفرف في الأجمة، لكن هذا أيضاً لم يكن يقض مضجعه. وبالتدريج، بشكل غير ملحوظ،

بدا وكأنه انفصل عن هذه الغابة، وغادر زمنه، ورأى، وهو يكاد يغفو، نفسه بعيون غيره، وربما للمرة الأولى، أدرك مدى تعقد وضعه. ولقد رأى نفسه، كما لو من الخارج، واختلج لا إرادياً في ذهول، شبيه بالحلم - ماذا جرى له؟ كيف أصبح غريباً محتقراً في نظر الجميع، منبوذاً مكروهاً، من المذنب في ذلك؟ أهو نفسه، أم أحد آخر غيره؟ أم ربما لا أحد؟ لكن كيف أصبح كل ذلك ممكناً إذن؟ وما الداعي، بعد الحصول على الأرض، إضاعة كل شيء، والتحول إلى شريد ومجرم هارب، إلى إنسان مجرد من الحقوق، خارج عن القانون؟ وكيف بدأ كل ذلك؟ لكن مهما فكر في هذا الأمر - كيف بدأ ذلك، ومما، لم يستطع العثور على جواب مقنع. على الأرجح أن كل شيء بدأ خلسة، بشكل غير معقول، وعلى حين غرة، ومن ثم تطور إلى ما تطور إليه بالذات. هل كان بوسعه أن يتصور هذا كله في تلك الأمسية الشتوية الصقيعية، حين كان جالساً في مبنى المجلس الريفي، وطرح رئيس المجلس سوكور مسألة معقدة للنقاش: على من توزع المهام الثلاث القاطعة، التي جلبها من اللجنة التنفيذية المنطقية؟ لم يكن ذلك بالأمر السهل على أعضاء المجلس الريفي، الذي كان هو نفسه أحد أعضائه آنذاك. في تلك الآونة كان يصنف على أنه من الملاكين الوسط، فقد كان لديه اثنا عشر هكتاراً من الأرض. صحيح أن البعض في القرية كان لديه أكثر، أربعة عشر وخمسة عشر هكتاراً، لكن أية هكتارات هذه؟ فزميتروك بيدوتا، على سبل المثال، كان يملك ستة عشر هكتاراً، لكنه ظل فقيراً معوزاً، لم يكن لديه من يستثمرها: فولداه لم يعودا من الحرب، أما هو نفسه فكان كهلاً عاجزاً، وأرضه الواقعة قرب المستنقع النائي، عند النهر، تحولت خلال سنوات الحرب والثورة والحرب الأهلية إلى أرض بور، تغطيها الحشائش الطفيلية، ولم تعد أرضاً زراعية إلا على الورق. ومع هذا فقد اعتبروها في مكان ما هكذا، وكان زميتروك أول شخص في القرية يصنف في قائمة كبار الملاك، الذين

شملهم قرار نزع الملكية. أما هويدور فلم يخطر له ببال أن مثل هذا المصير يمكن أن يحيق به. وعلى الرغم من أنه كان يعيش لا أسوأ من الآخرين، فأي كولاك هو. كل ما لديه حصان، بقرتان، غنمات، خنزير - كما لدى الجميع في نيدوليشي. صحيح أنه كان يملك طيور الإوز، التي تسبح في البركة، عند أطراف البساتين. كان ثمة جدول ينبع من المستنقع، وفي أحد أيام الربيع قام مع ابنه بتحويل مجرى الجدول قرب الجسر، فتجمع الماء في بركة قليلة العمق، وظلت قائمة. لكن لا يمكن أن تكون طيور الإوز السبب في تصنيفه في قائمة الكولاك، ومِن ثَمَّ تحطيم حياته.

إن الدراسة هي من حطم حياته. تلك الدراسة اللعينة، لماذا اقتناها!... لو أنه بقي يدرس كما في السابق، بالدراسة القديمة، فلم تكن الغلال كثيرة آنذاك، بحيث لا يمكن أن تدرس في الجرن، لكنه ركب رأسه، أراد أن يتخلص من التخلف، أن يستخدم الدراسة...

كان ابنه ميكولكا هو من أوحى له بفكرة الدراسة. في تلك الآونة كان قد أصبح شاباً فارعاً ونشيطاً، وفي الخريف سوف يستدعى للخدمة العسكرية في الجيش الأحمر، وكان أميناً لخلية الكمسمول (الشبيبة) المحلية، ومذ تولى هذا المنصب، ظهرت في البيت الصحف والنشرات، وبعض المجلات الممتعة، بما فيها «الملحد»، على سبيل المثال. عادة ما كان الشاب غارقاً في العمل نهاراً، وفي الليل يقرأ على ضوء المصباح، وعند الصباح ينقل لأبيه أهم ما قرأ - تارة مقالة عن الضريبة الذاتية في «أخبار بيلاروسيا»، وأخرى كلمة الرفيق ستالين بشأن المعارضة، وثالثة نشرة مفوض الشعب بريشييف حول تحسين الزراعة. فكان هويدور يقرأ، صحيح أنه لم يكن يفهم كل شيء، لكنه كان يستوعب ما هو جوهري، ثم إنه كان يرى الواقع بأم عينيه: الحياة سيئة فعلاً، والعوز قائم،

والزراعة متخلفة، هذا عداك عن سوء إدارة المزارع. لكن ما الذي ينبغي القيام به لتحسين الإدارة؟ لا شك أن المعرفة وحدها ليست كافية، بل لا بدَّ من المال والآلات والسماد، ومن أجل تأمين السماد لهكتاراته اقتنى بقرة ثانية، وقام بتربية عجلة، على الرغم من أن حليب بقرة واحدة كان كافياً وزيادة لأسرته. وقبل ذلك بنحو أربع سنوات، ربما كان أول مزارع في القرية يشتري محراثاً حديثاً وجديداً من مدينة بولوتسك. كان المحراث مدهوناً باللون الأزرق الفاتح، وله مقبضان أملسان من خشب البلوط. كان محراثاً ممتازاً، وكان مصدر متعة لمن يستخدمه، فلا غرابة أن يطلب الجيران تجربته: وفيما بعد قام عدد من المزارعين بشراء هذا النوع من المحاريث، التي حظيت بإعجاب الجميع.

في وقت متأخر من مساء أحد أيام الخريف وصل ميكولكا إلى البيت. كان متعباً، جائعاً، يغطيه الوحل حتى ركبتيه، وقد تبين أنه كان قد حضر أحد الاجتماعات المهمة في المنطقة. وعلى الفور وضعت الأم الصحن على الطاولة. وقال، بعد أن أكل قليلاً: «دعنا يا أبي نشتر دراسة. إن بالإمكان شراءها عن طريق التعاونية الاستهلاكية، والدفع بالتقسيط». وفكر هويدور ملياً، قبل أن يجيب. بالطبع ليس شراء الدراسة بالأمر السيِّئ، ولقد سبق أن رأى واحدة منها في القرية المجاورة، حيث اشترك عدد من المزارعين في شرائها. وقد أكد المزارعون أنها تدرس بشكل جيد، وهم مرتاحون لأدائها كثيراً. ثم إنها أفضل من القديمة وأسرع. لكن... كأن قلبه أحس بما يمكن أن يترتب على ذلك. كان يعرف بالتجربة أن ما هو جديد وغير مسبوق في حياة الفلاح غالباً ما يتجاور مع الحماقة والغش، ولا بدَّ من التفكير ملياً، كيلا تقع في ورطة. وهذا ما قاله لابنه، أما ذاك فقد رد عليه ضاحكاً: أي غش تجره الدراسة؟ في غضون أسبوع تدرس كامل المحصول، ولن تضطر إلى التلويح بالدراسة

القديمة الشتاء كله. وقال هويدور بينه وبين نفسه، هذا صحيح، لكنه ظل صامتاً، نهباً للشكوك. وفي الصباح، وعندما انصرف ميكولكا لشؤونه الشبيبية، قام هويدور بالتشاور مع غانوليا بحذر، بعد ذلك قرر شراءها قبل أن يسبقه إليها أحدهم من قرية أخرى.

جيء بالدراسة جراً بعد يوم من عيد باكروف، وقد ساعده عديله توماس، حيث أمضيا الكثير من الوقت في ضبط جهاز ناقل الحركة، ذي العرائش الخشبية، وناقل الحركة المسنن. وبدوره أجل ميكولكا، الذي كان يفقه القليل في التكنيك الزراعي الجديد، أجل أموره الشبيبية، ومد يد المساعدة. أخيراً تم ضبط كل شيء، وقاموا بتجربة الآلة. وبالطبع لم يكن ثمة وجه للمقارنة مع القديمة، لا من حيث السرعة، ولا من حيث الجودة. صحيح أن العمل عليها يتطلب عدداً أكبر من العمال، مقارنة بالدراسة على البيدر، فك الحزم، ووضعها على الطاولة، ومن ثم الدارس، العنصر الأهم في عملية الدرس، واثنان لغرف الحبوب، ورفع القش، بالإضافة إلى شخصين يسوقان الخيول بشكل دائري.

كانت تلك الدراسة بحاجة إلى ما لا يقل عن ستة أشخاص. وكان الناتج يستحق هذا الجهد. كانوا يدرسون جرشاً، مزرعتين أو ثلاثاً، دفعة واحدة، حسب الظروف. لم يكن هويدور يرد طلب أحد. كانوا يتشاركون، كل يختار شريكه، ويدفع حسب إمكاناته، وحسب الكمية بالطبع. كل شيء بالاتفاق، وهل هو مستغل لأبناء قريته؟ وإجمالاً فقد كان على استعداد لأن يقوم بالدرس مجاناً، لو لم يكن بحاجة إلى النقود. فالدراسة لم تكن رخيصة، وهو، وإن كان قد اشتراها بالتقسيط، ملزم بتسديد القسط كل ربع عام. حتى

أعياد الميلاد. كان جميع الجيران، وبعض من ذويه قد درسوا محاصيلهم لديه، حتى إِن البعض جاء من القرى المجاورة، لقد درس روفبا محاصيل الجميع.

لكن لم يقدر لدراسته الحمراء أن تقرقع على البيدر طويلاً. فمع بداية الخريف التالي جاء سوكور، رئيس المجلس الريفي نفسه، ومعه مسؤول ذو شوارب من المنطقة، وختموا البيدر. لقد تبين لهويدور أنه مارس الاستغلال، والكسب غير المشروع، وحين سأل «ما العمل الآن؟ ما الذي سيحصل؟»، رد أبو الشوارب بشكل غامض، وهو يغلق حقيبته الصغيرة الرثة «ما سيحصل سوف يحصل». غادر الاثنان الحوش، دون أن يلتفتا، بينما بقي هو لدى البوابة، وقد أحس أن الأمر لا يقتصر على خسارة الدراسة، بل إنها بداية مصيبة في منتهى السوء، راحت تدوم فوق داره كما الغراب، ذو المخالب. في تلك الآونة لم يعد ميكولكا موجوداً في البيت، فمنذ شهرين استدعي إلى الخدمة العسكرية، وأرسلوه إلى الحدود في الشرق الأقصى. ومن هناك بعث رسالته الأولى، وفيها يعرب عن سروره البالغ بالخدمة «بتماس مباشر مع الساموراي اليابانيين». كتب له هويدور رسالة مقتضبة، لم يأت فيها على ذكر الدراسة بكلمة واحدة، كيلا يعكر صفو حياة ابنه في الخدمة.

أما في نيدوليشي فقد جرت أمور محزنة. إذ ظهر الحساد، أمثال ظيركاش، الذي كتب ضده وشاية، أرسلها إلى مدينة بولوتسك، يتهمه فيها بابتزاز الفلاحين. لكن أي ابتزاز هذا؟ حتى الأجرة لم يكن يحددها. وإجمالاً فهم لم يسألوه عن شيء، لكنهم لدى فرض الضريبة الثابتة تذكروا الدراسة، وقال سوكور إنه من الإنصاف فرض ضريبة ثابتة على روفبا، الذي حقق بعض الكسب من استخدام الدراسة. لم يدر هويدور بماذا يجيب، فهو لم يكن يجيد الرد باختصار، ولم يكن ثمة إمكانية

للشرح بالتفصيل. ولما كانت دراسته الوحيدة في القرية، وبغض النظر عن كسبه من عدمه، فقد فرضت عليه الضريبة الثابتة، التي ينص عليها القانون، ولم يكن ثمة قانون ينص على حمايته.

وفيما بعد كم كرر هويدور بينه وبين نفسه: أي شيطان جعله يتورط في اقتناء تلك الدراسة؟ كان من الأفضل لو أنه ظل يدرس، كما يدرس الجميع. إذن لكسب بعض القمح، مهما قلت كميته، ولبقي في ركنه، ولم يجر على نفسه تلك المصائب والأرزاء، التي أحاقت بحياته، بطريقة شيطانية. وعلى الأرجح أنه ما من شيء كان قادراً على إنقاذه، وأن الدراسة كانت مجرد ذريعة. فإذا ما مالت العربة، المثقلة بالأحمال، على السفح المنحدر، فهي آيلة إلى السقوط حتماً، مهما حاولت إسنادها، إذ لا بدَّ لإحدى الجهتين أن تجر الأخرى. كانت الدراسة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فتدهورت عربة حياة روفبا. التي كانت مائلة أصلاً، لأنه كان موسوماً، كما توسم الدابة في القطيع، وسم من نوع خاص، ظهر بحذاء اسمه، في المجلس الريفي، أو ربما في المنطقة. وبصعوبة كبيرة تمكن من تسديد الضريبة الثابتة. ومقدارها سبعون بوداً[1] من الغلال، بعد أن أفرغ عنبر الحبوب حتى آخر حبة، وسلمها قبل الأول من آذار، كما هو وارد في التبليغ. بعد ذلك بدأ الجوع يتسلل إلى البيت، ولم يعد ثمة من بذار للزراعة الربيعية - فقط نحو بودين من الشعير ونصف كيس من الشوفان. ولم يكن يعرف هل يشتري الباقي، أم يستلفه من أحدهم. لكن الشراء يتطلب وجود المال، والمال غير متوفر لديه. وبينما هو في حيرة من أمره، جلبوا له تكليفاً آخر بتسديد ضريبة جديدة أكثر

---

(١) البود: وحدة وزن روسية تعادل ١٦,٣٨كغ.

قسوة: ثمانون بوداً من الحبوب ومئة روبل نقداً. عندها قال محدثاً نفسه: هل جنوا هناك يا ترى، فمن أين يأتي بهذا كله؟ تردد على المجلس الريفي، وسافر إلى المنطقة، قاصداً تيربيلنيكوف، وهو أحد معارفه، كان قد عمل حتى عهد قريب في الكمسمول مع ميكولكا، شاكياً متذللاً ومتوسلاً. لكنه عاد بشروى نقير، وأبلغوه: إن لم تدفع نصادر المزرعة «بما فيها البناء والمواشي». أمضى عدة أيام وهو يجتر مصابه، ثم راح يطوف على أقاربه وأقارب زوجته، ومن يعيش في بحبوحة ولو قليلة في قريته والقرى المجاورة، يطلب المال. لكن الجميع بدوا وكأنهم تخشبوا وأصيبوا بالطرش، فلم يرغب أي منهم في فهم مصيبته، ولم يعطه أحد شيئاً. بالطبع كان كل شخص في تلك الآونة يفكر في كيفية حل مشاكله الخاصة، فالتبليغات بشأن الضريبة الثابتة لم تقتصر على نيدوليشي، بل إنها بدأت تصل إلى القرى الأخرى. عندها قرر بيع الدراسة، وأعلن عن ذلك وسط معارفه، وحتى في سوق البلدة. لكن أحداً لم يرغب في شرائها، وحتى لم يولها أي اهتمام، مما اضطره إلى بيع الدواب: البقرتين وكل ما لديه من أغنام والخنزير. لقد كان غبياً بالطبع: لم يدرك أن كل ذلك عبث، حتى إيصال تسديد المبلغ كاملاً لا يمكن أن ينقذه. كان من الواضح أن أي شيء لم يعد قادراً على إنقاذ روفبا، الموسوم بكلمة «كولاك» النجسة والمرعبة.

في تلك الأيام المشهودة أثناء تطوافه، بحثاً عن النقود، التقى في البلدة اليهودي القديم نعيم، الذي سبق أن تعامل معه، وعرج على داره تحت شجرة الزيزفون، عندما اشترى الدراسة. لم يسبق أن جمعت بينهما صداقة مميزة، لكن نعيم كان مستعداً للإقراض، وحتى لتمديد مهلة التسديد، عند الضرورة، لا بل القبول بالبيض والزيت وكيسين من البطاطا أحياناً، بدلاً من النقود. ونعيم العملي والحركي دائماً ها هو يضرب في شارع البلدة، على غير هدى، كما

لو أنه لا يرى شيئاً من حوله. وقد سلم عليه هويدور بأدب، وتجاذبا أطراف الحديث، حيث تبين أن لدى نعيم هو الآخر خلافات جدية مع السلطة. وحين شكا له هويدور مصيبته، أخذ اليهودي العجوز بتلابيبه، وجره ناحيته بقوة، وهو يقول: «نصيحتي لك اترك كل شيء، خذ أولادك، واهرب. إلى أين؟ ليس مهماً إلى أين - إلى حيث تقودك قدماك، وإلا فات الوقت... هذا ما يقوله لك نعيم. لقد تركت كل شيء، وها أنا ذا في الطريق إلى المحطة مع هذه الصرة. لم أعد أعيش هنا، فأنا لاجئ. اسمع كلامي يا هويدور».

لكن هويدور لم يعمل بنصيحته: فكيف يترك كل شيء؟ والأرض والمزرعة؟ وإلى أين يرحل؟ فهنا جذوره، هنا في القرية، فكيف يمكن أن يرحل إلى العالم المجهول، حيث لا مأوى له ولا ملاذ؟

بعدها أمضى في نيدوليشي قرابة العشرة أشهر، لكنها كانت حياة خالية من المسرات، فقد أقفرت داره، وحل فيها القل ضيفاً ثقيلاً. كان هويدور صامداً، يكز على أسنانه، أما غانولكا فكانت غالباً ما تبكي، خاصة في أوقات الصباح، عندما تبدأ تحضير الطعام، وحين ينبغي سكب شيء في القدر، أو وضعه في المقلاة. ومن أجل جلب الحليب للصغيرة كانا يذهبان إلى القرية، إلى ليوكس، أو إلى بيت غريتشخين. كان هؤلاء يشاطرونه مصابه، ويساعدونه قدر الإمكان. إنه يذكر كيف قصد آنذاك زميتري تصيبروكوف، الذي كان مديناً له للعام الثالث بثلاثين روبلاً. إنه مدين له منذ أيام الدراسة، ولم يدفعها. ولفترة طويلة ظل هويدور يتردد في تذكيره، كان يشعر بالحرج، لكأنه لا يطالب بماله، بل بمال لا يخصه. لكنه عبثاً لم يصغ آنذاك لزوجته، التي قالت له، حين رأته يهم بالذهاب إلى زميتري، ذات مساء: «لا تذهب، فلتحترق هذه الروبلات الثلاثون، طالما أنه إنسان عديم الضمير، إلى هذا الحد». لا شك أنه

بدون ضمير فعلاً، حتى هويدور كان يفكر على هذا النحو، على الأرجح، لكن كيف لا يذهب إليه، وهو في هذه الضائقة؟ فذهب، وبالطبع فقد عاد بخفي حنين. لم يكن لدى زميتري نقود، أو أنه قرر أن لا يدفع، من يدري، لكن حديثهما بدا سيئاً، حتى إن هويدور لدى عودته إلى البيت كان متجهماً، وظل لائذاً بالصمت حتى الصباح. ربما لا ضير في الأمر، وربما كان قد تخلى عن هذه الروبلات الثلاثين، لولا أن زميتري هذا كان من نشطاء مجلس الفقراء. وحين بدأت العملية الأفظع - نزع ملكية الكولاك، كان هو بالذات من طرح فكرة نزع ملكية هويدور روفبا، باعتباره ملاكاً ومستغلاً.

ولقد أخذوا برأيه، وتم نفي هويدور. لقد طبقوا الصراع الطبقي في القرية، بينما بقيت الروبلات الثلاثون في ذمة زميتري، فلينفقها بالعافية. لم يكن هويدور يشعر بالأسف على النقود، لكن الحياة في هذه الدنيا أصبحت أكثر مرارة.

في مكان ما من السماء كانت شمس الخريف غير الحارة ترسل نورها، وفي البعيد كانت ذرى أشجار الشوح تلمع بوداعة تحت أشعتها المائلة. وفوق أغصان الشوح كانت تتدفأ الغربان، وهي تطير بين الفينة والأخرى إلى مكان ما، ربما لتحط على أشجار الشوح المجاورة. أما في الأسفل، تحت أجمة البندق، فكان الظل يبرد. كان البرد قارساً، فراح هويدور يتقلب من جنب إلى آخر، كيلا يبرد من رقاده على الأرض. ولقد غفا قليلاً، ساعة أو أكثر، ومن جديد عاد الجوع يعذبه. شعر بالانجذاب نحو حقل البطاطا، فجلس تحت الشجيرات، وراح يفكر. ربما تم جني كل شيء، وغادر الناس الحقل، لكن لا بدَّ أن شيئاً ما قد بقي، نحو عشر حبات من البطاطا لم تستخرج من الأرض - على الأرجح

أن ذلك لن يكون سرقة، وإذا ما كانت سرقة فهي ليست بالكبيرة جداً، وأن الكلخوزيين سوف يسامحونه، فهم على كل حال أخذوا منه أكثر - كم تساوي الدار وحدها، هذا عداك عن الدراسة، أما هو فكل ما يحتاج إليه منه مجرد نصف دلو من البطاطا، وهذا ليس بالكثير أبداً.

نهض ومشى بين أجمات البندق، ودخل حرش الحور الفتي، المملوء بالحطب القشاش، ولم يستطع الخروج منه إلا بالكاد. تباطأ قليلاً بين شجيرات توت العليق الباسقة، بارتفاع قامة الإنسان. وعلى أغصانها كانت تبدو هنا وهناك الثمار السوداء الجافة، التي أشبعتها الطيور نقراً، فراح يجمعها حبة حبة ويأكلها. كانت الثمار تقرقش تحت الأسنان بشكل مقرف، لم تكن لذيذة، إذ فقدت حلاوة الصيف كلها. مع نهاية النهار وصل إلى طرف الغابة، بعيداً عن حقل البطاطا، وأدرك أنه انحرف كثيراً نحو اليمين، وكان عليه أن يعود أدراجه وطرف الغابة. لا بدَّ أنه قطع فيرستا أو أكثر، حين سمع صوتاً ضعيفاً غاضباً غير بعيد عنه. ألقى نظرة خاطفة نحو الأمام، وهو مختبئ بين الأجمات. غير بعيد كان ثمة عجوز مقوس الظهر، في سترة صهباء، يمشي ببطء عبر حاشية الغابة، ولديه بقرة سوداء، يقودها بحبل. كانت البقرة تحاول الوصول إلى الحشائش في الأجمة، فكان الراعي يدمدم بلطف بين الفينة والأخرى. راح هويدور يراقبه باهتمام من بين الأدغال، محاولاً اكتشاف إن كان يعرفه. لكن كلا، فقد بدا العجوز غريباً، ولا بدَّ أنه من قرية نائية. كان بالإمكان تجاوزه عبر الغابة، لكن فجأة خطرت لهويدور فكرة: ماذا لو طلب منه الخبز؟ إذا كان العجوز يرعى البقرة منذ الصباح فمن المحتمل أن لديه خبزاً في جيبه، ولربما أعطاه بعضه. كان يتوق كثيراً إلى تناول الخبز.

أخيراً حزم أمره، وخرج من الأجمة في نهاية حقل الزراعات الشتوية، وسار نحو الراعي. الآن كان بمقدور ذاك سماع وقع خطواته، لكنه كان مشغولاً بالبقرة، وبدا وكأنه لا يوليه أي اهتمام. حين اقترب هويدور أكثر، ألقى السلام بتحفظ، نظرت إليه عينا العجوز الباهتتان، وكان وجهه مغطى، كما لدى هويدور على الأرجح، بلحية شيباء كثيفة. قطب العجوز، وهو يتفحص الغريب بعينين عمشاوين، دون أن يرد التحية، فسلم هويدور من جديد.

- سامع، سامع - قال الراعي أخيراً، مهمهماً بفمه الأدرد - نهارك سعيد، طيب.

- ترعى البقرة؟

- بقرة طبعاً، فهذه ليست حصاناً. لم أعد أرعى الحصان. لقد رعيت بما فيه الكفاية.

- وأنت نفسك من أين؟ - سأل هويدور، ولاذ بالصمت. كان هذا سؤالاً مهماً، بالنسبة إليه، هل يستطيع الجد التعرف عليه أم لا؟

- إنني من أوشاتوف، هناك - قال الراعي، وللمرة الأولى راح ينظر إلى هويدور باهتمام. لكن منظره البائس لم يثر استغراب الراعي، كما بدا لهويدور، فهو لم يكن أحسن لباساً. وتنفس هويدور الصعداء ففي قرية أوشاتوف النائية، لم يكن يعرفه إلا قلة.

- ربما لديك دخان؟ - فجأة سأل هويدور، ولم يتعرف على صوته، الذي أصبح بائساً وضعيفاً. لم تكن لديه أية رغبة في التدخين، فقد أقلع عنه من زمان، لكنه لم يكن يملك من الجرأة ما يكفي لطلب الخبز بهذه السرعة.

- يوجد - قال العجوز، وراح ينقب في جيب سترته العميق - لكن لا توجد شعلة.

- شعلة ربما نجدها - قال هويدور، وندم على فتح باب الحديث عن التدخين: ينبغي أن يحرص على أعواد الثقاب. لف كل منهما سيجارة صغيرة من قصاصة صحيفة قديمة. وبأصابع مرتجفة «شخط» هويدور عود الثقاب، وبالحذر نفسه أشعل سيجارته، ثم أصبح أكثر جرأة، فأعطى سيجارته للعجوز ليشعل منها.

- هل تعمل في الكلخوز؟ - سأل هويدور، بعد أن أخذا نفساً. ولقد شعر بدوخة في رأسه بسبب هذه السحبة، وترنح قليلاً. ومن جديد راح العجوز ينظر إليه بريبة.

- في الكلخاز، وكيف لا... الجميع الآن في الكلخاز... وكيف لا...

- وإذن - لم يعد هناك ملاك؟

- ملاك؟ غض الراعي إحدى عينيه - وأنت من أين؟ من بعيد؟

- الواقع أنني... لست من هنا - كذب هويدور - في طريقي إلى الديار.

تحركت البقرة السوداء إلى ما وراء الأجمة، بعد أن شدت الحبل بقوة، جارة العجوز خلفها، فمشى هويدور في إثره.

- وهل بقي ملاك هناك، في ناحيتكم؟

- كلا، لكن...

- وعندنا أيضاً لم يبق - قال العجوز بحسرة - الذين لم يريدوا العمل في الكلخاز رحلوهم، والذين بقوا وأرادوا نزعوا أملاكهم ونفوهم أيضاً، الكولاك المكولكين - دمدم العجوز، وكأنه يشكو، وهو يتبع البقرة.

- طيب، وكيف هي الحياة في الكلخوز؟ هل تعيشون في يسر؟

- يسر؟ من الفصح حتى عيد إلياس، كنا نأكل العشب.

- إلى هذا الحد؟

- نعم ألا تعرف هذا؟ أم أنكم لم تعانوا من الجوع؟ - سأل العجوز، وهو يثبت عليه نظرة لوم واستفسار.

- كيف أعبر لك؟ عانينا...

- المنقذ الوحيد هو البقرة. الحليب. لكن لا بدَّ من تسليمهم مئتي ليتر واللحم والبيض، والصوف والنعاج. في الشتاء ذبحنا خنزيراً، فغرمونا بخمسين روبلاً.

ـ من أجل الخنزير؟

- طيب. لقاء الجلد. فالجلد ينبغي أن يسلم. وهل يختلف الأمر عندكم؟

- عندنا؟ كيف أشرح لك؟ المعاملة صارمة، لكن ربما ليس إلى هذا الحد - كاد هويدور يتبلبل، فلا يعرف بماذا يجيب. إنه لا يعرف فعلاً واقع الحال في الأماكن الأخرى. أهو كما هنا، أم إنه يختلف. ولقد فهم العجوز جوابه المراوغ على طريقته.

- على الأرجح لا يوجد مكان بمثل قذارة منطقتنا. والناس غير صالحين. فهل هذا معقول: إذا ما تخلفت عن تسديد متأخرات الضريبة، تصادر

بقرتك الباقية؟ والصغار؟ كيف يمكن أن يبقوا بدون حليب؟ سيموتون. كم مات منهم في الصيف، الكبار والصغار. وهكذا تراني أجوب الغابة مع هذه - ثم شد الحبل بطريقة معبرة - كيلا يأخذوها. لا طاقة لي على تسديد أقساط القرض. وفي البيت ثلاثة صغار. مصيبة...

- مصيبة - كرر هويدور مرتبكاً. حتى الآن لم يصدف أن تحدث مع أحد عن الأنظمة السائدة هنا، كي يعرف كيف يعيش أبناء قريته، كان العجوز أول من تحدث إليه بهذا الخصوص. ولقد أراد هويدور أن يستفسر منه بالتفصيل، لكنه كان يخشى أن يراود العجوز الشك به، فهو هنا غريب فعلاً.

- مصيبة حقاً.

- ربما ينبغي رفع شكوى، كتابة شكوى - نصح هويدور بحذر.

ابتسم العجوز، وهو يلوي وجهه الكثيف الشعر، وقال:

- لمن تشكو؟ للمسؤولين؟ إن مسؤولينا أشبه بالوحوش. يأتي أحدهم... هذا الروفبا، فيوسعك شتماً، ويهدد بالنفي إلى سيبيريا...

فجأة شعر هويدور بالأرض تميد تحت قدميه، وبالحقل يسبح إلى مكان ما بشكل مائل.

- روفبا؟

- نعم روفبا. إنه الآن أمين الحزب. إنه شاب، غير أنه يتصرف وكأنه مارد.. لقد تخلى عن أبيه. كانوا قد جردوا أباه من أملاكه، بصفته أحد الكولاك في نيدوليشي، وهكذا فقد تخلى عنه، ويقال إنه عازم على تغيير كنيته، لكيلا يبقى أثر...

بدا وكأن هويدور يهوي على الأرض ببطء، أما الأرض، فكانت لا تكف تسبح، وتميد تحت قدميه. لم يعد يسمع جيداً كلام العجوز، الذي كان من الواضح أنه يتذمر من الحياة ومن الإجراءات المعمول بها في المنطقة. لم يعد هويدور يسمعه. لقد أذهله الخبر المفاجئ المتعلق بابنه، وهز كيانه، إلى درجة أنه فقد الإحساس بالذات، ولم يعد يستطيع أن يسأل عن أي شيء، فراح ينظر شارداً إلى الحقول الرحبة، ومن خلفها، فوق الرابية، تراءت أسطح القرية القريبة. مشى وطرف الغابة بصمت. لم يطلب الخبز... لم يعد بمقدوره أن يطلب شيئاً. راح يجرجر قدميه، كما الكلب، الذي أوسع ضرباً، ويسأل نفسه: لماذا جاء إلى هنا، ولماذا تحدث مع هذا العجوز؟ ليته لم يعرف شيئاً، لا عن الحياة هنا ولا عن ابنه، إذن لبقي يعيش مع مصائبه، التي ظل يحملها في داخله سنوات طويلة. لماذا أضاف إليها مصائب جديدة؟ وكيف يجد لها مكاناً في روحه المثقلة بالعذاب. كيف يعيش معها؟ ثم أي حياة هذه؟...

بلا مبالاة تامة بالغابة وبالحقل، ناسياً توخي الحذر، ودون أن يلتفت مرة واحدة، ابتعد عن العجوز وبقرته، وتغلغل في غابة الأشجار المورقة، ثم تهاوى خائر القوى بين السرخس العالي والنادر. لقد بدا له ما سمعه عن ابنه ميكولكا غير معقول، عصياً على الفهم. ومع هذا فقد راح يحاول أن يفهم شيئاً ما. لقد تخلى عن أبيه الكولاكي، طيب، لكن لماذا هذه المعاملة للناس؟ وما الداعي لتغيير الكنية؟ لماذا لا تناسبه الكنية؟ ماذا سيبقى إذن من ماضيه، وبماذا يعيش للمستقبل؟ ما الذي سيقوله لأولاده، إذا ما رزق بهم؟ كان هويدور يجد صعوبة بالغة في فهم طريقة حياة ابنه، ورأيه في كل شيء. لم يره منذ سبع سنوات، وما سمعه عنه غير مفهوم ومستحيل.

في طفولته كان ميكولكا صبياً مطيعاً وديعاً، رؤوفاً بالحيوانات. فقد حدث ذات مرة أن انكسرت رجل الدجاجة الرمادية، فما كان منه إلا أن وضعها في قفص، تحت السرير، وظل يعتني بها الشتاء بطوله. ثم إنه كان يحب أمه حباً جماً، وكم تألم حين أصيبت بالحمرة. وفي سن المراهقة أحب الكمسمول بمثل هذا الوفاء، ربما لم يحب الكمسمول نفسه، بقدر ما أحب المشاغل الصاخبة العجولة، التي تعلقت بها الشبيبة بحماسة - في القرى المظلمة، المغمورة بالثلوج، حيث يخيم الملل والضجر على مدى أشهر طويلة. كان الشباب يبتكرون شيئاً يشغلهم، يعقدون الاجتماعات، يناقشون القرارات، ويتخذونها. وفي خليتهم الكمسمولية كان ميكولكا وزميله في الصف شوركا، الابن الوحيد للأرملة الفقيرة ميخالينا، الأكثر نشاطاً. وفي ذات مرة اتخذوا قراراً - بإزالة الأيقونات. لا شك أن اتخاذ القرار أسهل من تطبيقه، ولذا فقد تقرر كبداية أن يرفع الأيقونات كل في بيت أهله. كان ذلك أيسر، ومع هذا فإن البعض فشل في ذلك في البداية، حتى أن بعض الأهل هددوا بجلد أولادهم الكفار. أما هويدور فقد تبنى من مشروع الشباب موقفاً هادئاً - الأيقونات، وأي ضير في إزالتها! صحيح أنها معلقة في الزاوية لا تضر أحداً، ولا فائدة ترجى منها أبداً. لكن غانوليا عاندت، ورفضت نزعها بأي ثمن، مما اضطر ميكولكا إلى الاستمرار في بذل المحاولات لإقناعها منذ عيد الميلاد وحتى فصل الربيع. أخيراً تكللت جهوده بالنجاح. فمع حلول عيد البشارة أزال الأيقونات، وعلق مكانها في الزاوية صورة كارل ماركس، لكنه لم يعلق أي شيء على الصورة. ومنذ ذلك الحين وصورة الرجل ذي اللحية معلقة في الزاوية، وهي بدورها لا تنفع أحداً ولا تضر أيضاً. لكن ميكولكا مسرور، حسناً.

وقبيل الربيع علم أمين الكمسمول بالمصادفة أن أيقونة واحدة بقيت في بيت صديقه شوركا، وهي معلقة في الزاوية. عندها شكل ميكولكا لجنة من ثلاثة أشخاص، وقصدوا شوركا للتحقق. ولقد تبين أن الأمر كذلك فعلاً، فلا زالت أيقونة رئيس الملائكة جبرائيل معلقة في مكانها القديم. كانت ميخالينا، أم شوركا، تبكي، ولا تسمح برفع الأيقونة، أما شوركا فلا يستطيع إقناعها، لقد تبين أنه كمسمولي ضعيف الإرادة. كان تصرف ميكولكا مفاجئاً. ظنوا أنه سوف يقوم برمي الأيقونة على الفور، لكنه لم يمسها بأذى، بل دعا إلى عقد اجتماع كمسمولي، وطرح مسألة بقاء شوركا في المنظمة، على الرغم من صداقتهما القديمة. دهش هويدور قليلاً من تصرف ابنه المفاجئ، وفي ذات مساء وجه إليه بعض اللوم بلطف. حيث سأل: ألم تقسوا كثيراً على زميلكم الريفي الشاب شوركا بفصله من الكمسمول؟ وعلى هذا رد ميكولكا بصوت مفعم بالقسوة، التي لم تعهد فيه من قبل: «إن الكمسمول يسحق أمثال هؤلاء المنافقين سحقاً». «يا للعجب!» - همهم هويدور بتنازل، وانصرف إلى أموره الزراعية. كان ينظر إلى تصرفات ميكولكا بشأن الأيقونات على أنها نزوات صبيانية غريبة، وكان يطمئن نفسه بأنه ما زال صغيراً أحمق، وما إن يكبر حتى يزداد ذكاء. لكن تبين أن ذكاءه جاء في غير محله.

بعد أن اطمأن هويدور في الغابة قليلاً، أصبح يحاكم الأمور بشكل مختلف. ربما على هذا النحو يجب التصرف الآن؟ في الديار وفي المستوطنة شاهد بما فيه الكفاية من الناس والرؤساء على مختلف مشاربهم، وكان يحدث أن صرامتهم كانت تبلغ القسوة غير المعقولة، والهدف واحد - الاستهزاء. أصبح يدرك أن الطيبة على ما يبدو بقيت هناك، حيث الحق والعدل، أما حيث يسود

الصراع الطبقي وعدم التسامح، وحيث يفعل من هو أعلى بمن هو أدنى أي شيء، فأية طيبة هناك؟ على الأرجح أن الطيبة تلاشت مع مرور الزمن، وحل محلها شيء آخر - قاسٍ وظالمٌ. ويبدو أن ابنه ميكولكا الشاطر أدرك ذلك منذ عهد بعيد، وما دام قد أصبح الآن لا يطاق إلى هذا الحد، فهذا يعني أنه كان ينبغي أن يصبح هكذا، خاصة إذا كان الأمر رغماً عنه، ويتعلق بمصلحة الدولة. إذن لا يجوز على نحو آخر. أما تخليه عن أبيه... شيء مؤسف طبعاً، ومؤلم - لكن ما العمل؟ ربما تخلى عنه لأن أباه كمن مات بالنسبة له، ولن يعرف شيئاً عن ذلك. يبدو أن هذا وارد - فهو قد مات بالنسبة لابنه، ما دام لم يبعث له برسائل طيلة هذه السنوات، ولم يرسل خبراً.

ومع هذا فقد كان هويدور يشعر بالأسف والألم لذلك.

بدأ غبش المساء يخيم على الغابة، فنهض من بين السرخس. كان التعب الطويل قد أرهق جسمه، وبدت رجلاه الخدرتان سمينتين، لكأنهما جذعا شجرة (ربما تورمتا). لكنه تغلب على التعب، وسار من جديد متثاقلاً عبر الغابة باتجاه طرفها، ومن ثم على طول الأرض المزروعة، لينعطف بعدها باتجاه حقلة البطاطا.

في غضون ذلك كانت الشمس قد غادرت قبة السماء، واختفت خلف الغابة، بيد أن السماء فوق الحقل كانت لا تزال ترفل في ضوء الغروب، وفي هذه السماء العصرية المشرقة كانت تسبح على هواها الغيوم البيضاء الكثيفة. وكما توقع هويدور فالبطاطا في الحقل تم جنيها، ولم يكن هناك لا نساء ولا خيول في أي مكان، فقط في البعيد بدا كدس واحد محدب، مغطى بالقش، لكنه ليس بحاجة إلى الكدس. ابتعد قليلاً عن طرف الحظيرة، وراح

يحفر بأصابعه الثلم الطري، ويبحث في التربة الرخوة، كلا، لم يبق شيء هاهنا، ويبدو أنهم أخذوا كل شيء. وتابع تقدمه، وأزاح التراب في مكانين - ثلاثة، فعثر على نصف حبة بطاطا، قطعها المحراث نصفين. رفع رأسه، وتلفت - يبدو أَلَّا أحد في الجوار. انتحى جانباً، حيث انتشرت بكثافة أوراق البطاطا، بين الأثلام، ظناً منه أن شيئاً بقي فيها. نقب في عدة أماكن، فعثر على أربع حبات. بالطبع كان بالإمكان الاقتراب من الكدس، وملء جيوبه منه، لكنه لم يكن يريد الابتعاد عن الغابة كثيراً، وهل يعود فيسرق ما هو للكلخوز.

لم يكن يرغب في السرقة، لم يكن بوسعه أن يأخذ إلا ما هو متروك، لا يخص أحداً، ومنذ أقدم العصور لم يعتبر هذا حراماً، ولا سيَّما الآن. وبعد أن نقب في الأرض على عجل، عثر أيضاً على ثلاث حبات صغيرة، والتفت خائفاً. كان ثمة شخصان يسيران عبر الحقل باتجاهه بخطُى واسعة. أدرك كل شيء على الفور. ألقى حبات البطاطا من يده، واندفع يجري بالميل نحو الغابة القريبة المنقذة. وعلى الفور انعطف ذانك الشخصان لقطع الطريق عليه. أحدهما كهل، يرتدي جزمة ومعطفاً قصيراً، والآخر أصغر منه عمراً، وهو نحيل، طويل الساقين، يعتمر قبعة مائلة على جبينه. أدرك هويدور أن الخطر محدق به، وأنه قد وقع على ما يبدو. فانطلق بكل ما أوتي من قوة، باتجاه الحاشية، محاولاً قدر الإمكان الانحراف جانباً، كي يسبق مطارديه. وكان حذاؤه لا يكف يعلق بأوراق البطاطا المبعثرة على الأرض، فكانت ساقاه لا تحملانه، وكانت حبات البطاطا الأربع في جيبه لا تكف تلطمه على وركه. ولم تلبث خطواته أن قصرت من شدة التعب، فاستبد به الخوف من

أن لا تكتب له النجاة، ويلحقا به. لكن هل يعقل أن هذين الشخصين سيصطادانه حقاً، كما الأرنب في الحقل، وهل يعقل أنهما لن يتوقفا؟ في لحظة ما تمكن من سبقهما قليلاً، وها هو يصل إلى أشجار البتولا على الحاشية، ويراوده الأمل في النجاة - من يدري؟ يبدو أن مطارديه فقدا الأمل في اللحاق به، فتردد من خلفه صياح ساخط:

- قف أيها الخنزير الكولاكي، أقول لك قف.

تعثر هويدور من هول المفاجأة: لم يخطر في باله أنهما تعرفا عليه من بعيد، لكن ما داما يصرخان على هذا النحو، فقد تعرفا عليه بالطبع. وحين صاحا للمرة الثالثة، أيقن هويدور أن من يصيح هو زميتر ظيبروكوف. فقال في سره: آه يا إلهي، إنها الطامة الكبرى أن أقع في يدي هذا الشرير. ولقد أعطاه السخط زخماً، فاندفع، والأمل يحدوه، دون أن يلتفت، بين شجيرات البتولا الفتية على الحاشية. وفي الغابة ظل يجري أيضاً، وإن كان قد أصبح يجرجر قدميه، بشكل أكثر بطأ، بعد أن أصبح يسير بخطى متثاقلة. ومن جديد راح يخب، وقد نال منه الإرهاق، محاولاً الابتعاد قدر الإمكان عن تلك الحقلة المشؤومة. يبدو أن مطارديه لم يدخلا الغابة، وبقيا على الطرف. لفترة طويلة ظل يضرب على غير هدى عبر غابة الشوح، ذات الأشجار النادرة والقصيرة، وهو يتنفس بصوت أبح، ويفكر أن هذا اليوم كان شؤماً كاملاً عليه، ففي هذا اليوم المشمس الصافي لم تلح له بارقة أمل يتيمة. كأن ما سمعه عن ابنه لا يكفي، فجاء زميتر أيضاً... لكن انظر إليه! لقد اكتشفه. وكاد يمسك به متلبساً. إما أنه هنا حارس، وإما أنه أحد المسؤولين، إذا ما كان يتجول عبر الحقول، أثناء الدوام؟ إنه رئيس زمرة،

عل الأرجح، حدس هويدور. أن يكون زميتر ظيبروكين رئيس زمرة - إنه لشيء مضحك حقاً. المالك الأسوأ في القرية، الذي نفقت مهرته جوعاً. في الشتاء التهمت القش، ولم يكفها ذلك كله. إنه زميتر نفسه، الذي لم يتعلم على مدى حياته كيف يجدل الصندل، يعمل الآن هنا رئيس زمرة، يضاعف الاقتصاد. صحيح أن حنجرته كانت قوية دائماً، حيث كان بإمكانه أن يزعق في وجه أي كان، وهذا هو الأهم الآن. على الأرجح أن الأمور هنا في الكلخوز وهناك في المستوطنة هي هي.

* * *

الفصل الخامس

المطاردة

هبت الريح ليلاً، وراحت الغابة تئن، أما أشجار الشوح والصنوبر فكانت تصفر بصوت خافت قلق، تحت ضغط الريح، ودون توقف راح يتردد حفيف وريقات البتولا، وكان هويدور ينتظر هطل المطر كقضاء محتوم. في تلك الليلة لم يذهب إلى القرية، وإجمالاً لم يعد يغادر الغابة، حيث عثر لنفسه على مأوى، منذ عهد بعيد. لكنه لم يكن مأوى مضموناً، غير أنه من الواضح أنه لم يبق له مأوى آخر على هذه الأرض. في كل مرة كان يبحث عن مكان جديد يبيت فيه ليلته، ويحرص أن يبتعد عن الناس، في مجاهل الغابة. في المساء، وهو يبتعد عن مطارديه، وقد حل الظلام، وقع على الأرض الشائكة، في غابة الشوح الفتية، ولفترة طويلة ظل راقداً، دون حراك. على الأرجح أن التقدم أكثر عديم الجدوى، فمن هنا تبدأ المستنقعات، والأهم أن قواه قد خارت. بعد أخذ قسط من الراحة، جلس، وراح يقطع حبات البطاطا الأربع، ويتناولها بدون شهية. لم يبق لديه طعام آخر، وقد أمضى الليل في غابة الشوح، يجتر أفكاره.

«لماذا رزئت بهذا كله؟ هل أنا مذنب إلى هذا الحد مع الناس وأمام الله؟ فهل قتلت أحداً، هل سرقت أحداً، أو دنست شرف أحد؟». دائماً كان يحاول القيام بما هو أفضل، وألَّا يزعل أحداً، لا سمح الله، وألَّا يعطي أحداً حجة

للومه. كان يحترم السلطة، ويشعر إزاءها بالامتنان من كل قلبه، لقاء الأرض التي منحته إياها، ولقاء سخائها عليه، وهو الأجير الزراعي سابقاً. وكيف لا؟ فقد كان يعتبر السلطة السوفييتية سلطة الفلاحين الأم. وكان يصدف في الاجتماعات أن يتذمر البعض من نقص هذا الشيء أو ذاك، ومن عدم توفر الأقمشة والمسامير والسكر وقلة الكيروسين، فكان يقول لهم بنفاد صبر: انتظروا، ليس كل شيء دفعة واحدة. إن السلطة السوفييتية لا تظلم الفلاح الفقير، لأن الفلاح الفقير والعامل هما هذه السلطة نفسها. وهل هو من ابتكر ذلك؟ لقد قرأ عنه في الصحف، وسمعه في الاجتماعات على لسان ممثلي السلطة. وكان يصدق. كان على استعداد لأن يصدق كل من يمدح السلطة، لأنه حصل على ما يؤكد حقيقة ذلك، الحقيقة الناصعة، التي لا مراء فيها، والتي اسمها - الأرض.

فمن خدعه؟ خدعه بقسوة ودون شفقة، مدى حياته؟ وإجمالاً لم يكن الخداع بالجديد عليه، ففي غضون حياته اعتاد على الخداع أيضاً. لقد تعرض للخداع من الجيران والأهل وأبناء قريته.

وغالباً ما كان يتعرض للخداع من جانب الرئاسة، هنا وفي المستوطنة. وخدعه زملاؤه في المصيبة. حتى إنه يشعر بالامتنان تجاه البعض على خداعهم الوقح.

... من الشمال عادة ما كانوا يهربون ربيعاً، مع ذوبان الثلوج واستيقاظ التايغا. وعلى الرغم من أن التايغا في الربيع شحيحة، تضن بما يؤكل، فليس فيها من شيء يمكن أن تقتاب به (باستثناء الثمار فقط)، ففي الربيع ترتفع الشمس أعلى، وينازع الصقيع، وتتناقص المياه، والمهم يحل موسم الأعشاب

الخضراء، فسر أنى شئت، ولا تخش أن تترك وراءك أثراً. في هذه الفترة قلة من المنفيين، المنتشرين في المعسكرات والقرى لا يدغدغها الحلم المنشود بالعودة إلى الديار، حيث عاش هؤلاء حياتهم، وانتزعوا منها عنوة. لكن قلة قليلة منهم كانت توأتيها الجرأة على الهرب عبر التايغا، الممتدة لآلاف الكيلومترات، والخالية من الطرق والبشر، ولا سيَّما أنه، إضافة إلى الجرأة، لا بدَّ من التحلي بالصحة الحديدية وقوة الوحوش، واحتياطي من الطعام، والمنفيون بحلول الربيع لا يكادون يجرون أقدامهم. ومع هذا فإن الأحلام تراودهم، تثيرهم وتسكرهم، والسكران، كما هو معروف، يمكن أن يقوم بأي شيء - ما هو صالح وما هو طالح - ذلك يتوقف على الشخصية والظروف.

لم يكن الهرب من ورشة الأخشاب النهرية بالأمر الصعب، لكن الصعب هو اجتياز التايغا. الكثيرون كانوا يقعون في الأماكن القريبة - على الأنهار والطرق، والبعض الآخر كان يمسك به على بعد مئات الكيلومترات - في محطات القطارات في المدن، في المراسي، ويؤخذ من على أسطح القطارات ومنصات المكابح في القطارات، وتعثر الكلاب على آثاره بين أكوام الأخشاب المنشورة على السكك الحديدية. حين كان هويدور يعتني بزوجته المريضة، ويرعى ابنته الصغيرة، لم تراوده فكرة نيل الحرية بدفع هذا الثمن- الافتراق عنهما. لكن فيما بعد، وحين أصبح وحيداً... نادراً ما كان يفكر بذلك، ولا يلبث أن ينساه في الحال. وبالطبع فإنه لم يحدث أياً كان عن أحلامه الدفينة. وإجمالاً فقد كان هناك صامتاً ومنطوياً، فلم يكن بجواره معارف يثق بهم، أما الغرباء فالتعامل معهم يجب أن يكون بحذر - فمن يدري ماذا وراءهم، أضف إلى ذلك

أن الكثيرين لم يكونوا محط إعجابه، فهم قساة، كثيرو الزعيق لا ضمير لهم. الكثيرون كانوا يزدرونه، باعتباره بيلاروسياً خنوعاً وجاهلاً، كان يعرف ذلك، فلا يستاء. وبالفعل فمن كان بالنسبة لهم؟ من يمكن أن يستفيد منه؟ ولقد ألف تفاهته وتجاهل الآخرين له. فلم يحاول فرض نفسه على أحد كصديق، وفي الوقت نفسه فإن أحداً لم يحاول إقامة صداقة معه. ولذا فقد دهش حين ناداه أحدهم ذات مرة، وقال له كلمتين.

في صباح ضبابي رطب كانت زمرتهم تجهز الأخشاب في الساحة، للقافلة الكبيرة، وكانت زمرتهم تستعد لذلك بنشاط. كان هويدور يدحرج الأخشاب، في البداية على الألواح في الساحة، ومن ثم إلى أعلى الكومة، حين اقترب منه أوغور بهدوء. كان أوغور منفياً، كما الجميع، لكنه لم يكن من فئة الكولاك، منزوعي الملكية، بل من فئة أخرى، وصل إلى المنفى من فوركوتا، حيث أمضى في المناجم هناك حكماً في قضية جنائية، وهناك أصبح مسؤولاً، لكنه لم يلبث أن ارتكب ذنباً جديداً. في مجال العمل كان يشمخ بأنفه عالياً، ولم يكن يتزلف للمسؤولين، كان يعرف قيمته. حتى إنه كان يشق عصا الطاعة أحياناً، كأن يأخذ دقيقة زيادة على استراحة التدخين، أو يتأخر عن الاجتماع، وكان لديه دائماً تبغه الخاص، ولم تكن الرئاسة تقسو عليه، لا بل حتى إنها كانت تتساهل معه، وهي تعرف السبب على الأرجح.

بحذاء الكومة التفت أوغور هذا، وأصاخ السمع، وإذ أيقن أن لا أحد في الجوار، سأل بصوت خافت: «هل تريد العودة إلى البيت؟» ارتبك هويدور، إذ لم يفهم في البداية، المقصود. عندها أوضح له أوغور باختصار:

«هناك فرصة، ستكون الثالث. مفهوم؟» وقف هويدور، الذي لم يفهم إلا القليل، صامتاً كأنه ذليل. لا شك أنه كان على استعداد، من أجل العودة إلى البيت، أن يطير بجناحين، أن يزحف على بطنه. لكن كيف؟ أية فرصة ظهرت لديهم؟ ومع هذا، فهي قد ظهرت على الأرجح، ما دام هذا الإنسان الطيب يعرض ذلك... «اتفقنا إذن؟ - سأل أوغور، وأضاف، غداً قف عند الكومة الأخيرة».

في الصباح التالي قام هويدور بما طلب منه - وقف لدى الكومة الأخيرة من جهة الغابة. لم يكن القيام بذلك بالأمر الصعب: عادة ما كان العمال يتجنبون الوقوف في نهاية الساحة، حيث تكون دحرجة الأخشاب أصعب، والمسافة أطول مما هي عليه في الأكوام الوسطى. في هذه المرة وقف هويدور بجرأة أمام رئيس الزمرة، ووجد نفسه في الرباعية الجاهزة للقيام بالعمل المطلوب. وهنا كان أوغور أيضاً. وبحماسة استعراضية شرعوا يدحرجون الأخشاب الغليظة، لكن ما إن توارى رئيس الزمرة عن الأنظار، حتى أشار أوغور إلى هويدور برأسه، وغادر الساحة، بعد أن انحرف جانباً.

وبقلب واجف اندفع هويدور في إثره.

يبدو أنهما نجحا في الهرب. فلم يوقفهما أحد قرب القرية، ولم يرهما حتى. ولم يلبث أن انضم إليهما الثالث، وهو عملاق أعور، كنيته سكاكون. وكما أدرك هويدور فقد كان هذا صديق أوغور القديم. في اليوم الأول قطعوا قرابة الأربعين فيرستا في التايغا. عادة ما يتم التنقل في تلك الأماكن عبر النهر المتجمد شتاء، أو على ضفتي النهر صيفاً، أما الآن فلم يسيروا على الضفة،

بسبب كثرة رجال الشرطة والمخبرين على ضفتي النهر، فسلكوا طريقاً دائرياً، عبر التايغا. كان أوغور وصاحبه قد تموّنا ببعض الطعام، استعداداً للهرب: عدة كيلوغرامات من الدقيق وقرابة ثلاث عشرات من الكعك. وضعت في كيس وسادة أميري ممهور بالخاتم، كانوا يحملونه بالتناوب. أثناء السير وعند الاستراحة كان أوغور هو الآمر الناهي. كان هويدور يشعر بالامتنان نحوه، ويدرك جيداً أنه كان بمقدور أوغور اختيار آخر، أفتى منه وأقوى، يبدو أن هذه الثقة غير المتوقعة به قد رفعت من اعتباره لنفسه، فراح يسعى إلى إرضاء أوغور في كل شيء - تارة يحمل كيس الطعام فترة أطول، واخرى يناوب لدى النار، حين ينام صاحباه، وكان دائماً يجمع سقط الأغصان لإشعال النار، ويذهب في طلب الماء. وفي ذات مرة، وبينما كانوا قرب النهر يتنشفون بعد المطر، عمد هويدور المتأثر إلى الإعراب عن شكره لأوغور على طيبته، فما كان من ذاك إلا أن ضيق عينيه بمكر، وقال: «حزرت فوراً أنك تتوق إلى البيت كثيراً». «شكراً جزيلاً لك، سوف أظل أذكر ذلك مدى الحياة». «فيما بعد سوف ترد لي الجميل بالأحمر»[1]. رد أوغور مكشراً، لكنها تكشيرة بريئة. وعلى العموم فقد كان يعامل هويدور معاملة الند للند، ربما مع بعض التسامح، لكنها معاملة رفاقية إجمالاً.

كان يبدو أنه ليس بالرفيق السيء فعلاً - كان عادلاً في توزيع مؤونتهم الشحيحة بين ثلاثتهم. ولما كان الكبريت لديه، فقد كان هو من يوقد النار، عند الصباح، ويحدد وجهة السير، وفي الطريق كان دائماً في المقدمة، وكما فهم

(١) المقصود النبيذ الأحمر / المترجم.

هويدور فهذه ليست المرة الأولى في التايغا، بالنسبة له، فقد كان ماهراً في الاستدلال فيها، وعبور مجاهلها المخيفة. لم يذكر أوغور أين هي وجهتهم، ولم يطرح هويدور أي سؤال بهذا الشأن، معتمداً بشكل كامل على معارف رفيقه وتجربته. وبالفعل، فهل كان بوسعه، لو كان وحدَه، أن يقطع في أسبوع مئتي فيرستا من الغابات والمنخفضات، المجهولة، في ظل انعدام المسالك المطروقة؟ فيما بعد فقط، وبعد تجربته المريرة، أصبح يدرك الشيء القليل من الأسرار البسيطة لعمليات الهروب، أما في هروبه الأول ذاك، فقد كان لا يفقه شيئاً، كما الجندي الغر.

وقعوا بالمصادفة، وبشكل غبي، لم يكن ذلك بذنب أوغور، أو أحد آخر. ففي المساء وصلوا إلى عزبة صياد خاوية، بالقرب من الجدول البارد في التايغا، فدخلوها على أمل العثور فيها على شيء ما نافع، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مفيد. لم يجرؤوا على المبيت فيها، فابتعدوا أكثر من كيلومتر، ورقدوا متجاورين على الطحلب الوثير، بين أشجار الشوح.

وعند الفجر أيقظوهم وفوهتا بندقيتين موجهتان إليهم. وفيما بعد تبين أن أحد الصيادين المحليين شاهدهم في المساء، بالقرب من العزبة، فجرى يخبر أخاه القريب، وهكذا فقد أمسكا بالهاربين. كل شيء جرى بغتة، فجأة، وربما كانوا تملصوا من هذه المحنة لو كان لديهم وقت أكثر بقليل، وقبل أن يثوبوا إلى رشدهم، جاءت العربة، وفيها نقلوهم، مشدودي الوثاق، إلى المخفر، ومن هناك إلى المرساة، إلى قوماندانية الشرطة المحلية. لا شك أن الصيادين الأخوين نالا

مكافأتهما، أما الهاربون فقد أصبح وضعهم أسوأ مما كان عليه قبل الهرب. قاسى هويدور الأمرين بسبب هذا الفشل، حتى إن وجهه اسوَدَّ، ولاذ بالصمت، لا بل إنه رفض الخبز الذي رموه لهم عند المساء. أما أوغور فقد تلاشت رباطة جأشه، وفي ذات مرة دمدم غاضباً: «لماذا أنت مستاء؟ ينبغي أن تبتهج». «وكيف أبتهج؟» - لم يفهم هويدور. «طبعاً تبتهج لأنك لم تصبح خنزيراً برياً». «أي خنزير بري؟» استفسر هويدور. «لا تدري أي خنزير بري؟، إذن ابتهج أنك لن تعرف».

بيد أن هويدور لم يفهم شيئاً. ما هذا الخنزير، وما هذا الابتهاج؟ فقط فيما بعد، حين وقع في ورطة أسوأ - في موقع استخراج الخث، في ضواحي صيطيكفار - وراح يتبادل أطراف الحديث مع السجناء، سأل عن مغزى «الخنزير البري»ؘ، وحين أخبروه، أظلمت الدنيا في عينيه. فالخنزير البري صفة تطلق على الإنسان البسيط الساذج، الذي يستدرجونه إلى الهرب، لكي يلتهموه لاحقاً في التايغا، حين تنتهي المؤونة. كان ذلكم هو الخنزير البري. اما هو فكان ممتناً لأوغور. فقد أحبه بكل بساطة - على ثقته وطيبته. فلقد أولى أوغور خنزيره الكثير من العناية والحماية. حين اكتشف هويدور الحقيقة، ظن أنه سوف يكره رفيق دربه، لكن الغريب أنه لم يتمكن من الشعور نحوه بالبغضاء، بل راوده شعور آخر، نوع من الأسف. لكن ذلك الفشل الذريع قلب هويدور رأساً على عقب - لقد ذاق حلاوة الحرية. لم ترو تلك الجرعة الزهيدة منها ظمأه، لكنها غرست الأمل، ومنذ ذلك الحين راح هويدور، أينما قذفت به المقادير، ومهما كانت الظروف المحيطة، يدرس الموقف والناس بنهم، ويتحين الفرص لتحقيق الهدف المنشود الوحيد - الهرب.

وها هو يحقق ما كان يصبو إليه، بعد أن تغلب على المستحيل، ووصل إلى الديار. طيب وماذا بعد؟ إلى أين المفر من هنا؟ أم هل يموت في الغابة جوعاً؟

ربما هذا عقاب إلهي نزل به؟ على الأيقونات، التي ترك ميكولكا يخرجها من البيت، دون أن يحرك ساكناً؟ في البداية خبأتها غانولكا على السقيفة، خلف المدخنة. لكن ميكولكا عثر عليها، فأخرجها، وحطمها على زاوية العنبر. بكت الأم، أما هويدور فلم يدر كيف يتعامل مع الأمر. يبدو أنه شعر بالأسف على الأيقونات، التي تعاقبت عليها حيوات أجيال، ومع هذا - إذا كان ابنهما يتصرف على هذا النحو، لا بدافع الشر، بل بأوامر من السلطة... في تلك الفترة كان هويدور يعتقد أن السلطة لا يمكن أن تخطئ، وأن ثمة في موسكو ومينسك أناساً أذكياء مثقفين، يعرفون تماماً ما إذا كان ثمة إله أم لا، وكيفية التعامل معه لما فيه مصلحة الشعب. ففي مسائل الدين لم يكن يفقه الكثير، إذ اقتصر تحصيله في هذا المجال على شتاءيْنِ أمضاهما في مدرسة كنيسة الأبرشية، فكان يعتقد أن ابنه، الذي أنهى الصف السابع، ملمٌّ بالدين أكثر.

لكن الله لم يعاقب ابنه، بل عاقبه هو، لا بل إنه كافأ ابنه، على ما يبدو. وإذا ما عاقب الابن أيضاً؟

لا شك أن الوقت في الغابة كان قد تجاوز منتصف الليل، حين بدأ المطر. كانت الريح تسوق الرذاذ اللزج أمواجاً عبر الغابة. وفي بعض الأحيان كان المطر يغمر أشجار الشوح بكثافة، ولم يكن ثمة من مكان للاحتماء فيه من البلل. كان لا بدَّ من العثور على أشجار الشوح العتيقة، لكن الظلام الدامس

يسود الغابة، فلم يذهب إلى أي مكان. في ليلة كهذه لا يسير الناس الأخيار في الغابة - هذا ما خطر لهويدور بأسى. بين الفينة والأخرى كان المطر يخف، ثم توقف على ما يبدو، لكنه كان قد بلل، بشكل لا يستهان به، الحشائش وأغصان الشوح ورأس هويدور وكتفيه. ثم عاد يهطل من جديد. لم ينهض هويدور من مكانه، ولم يرقد على الأرض الرطبة، لكنه شعر ببعض الطمأنينة، فلا خوف عليه في الليل وفي المطر. كان ينتظر الفجر بقلق متفاقم، فهو لا يعرف إلى أين يذهب نهاراً، وأين يبحث عما يؤكل. وعموماً... كان قلبه يحدثه أن هذا النهار سيحمل إليه مشاغل كبيرة. عسى أُلَّا يحمل المصيبة... قبيل الصباح انقطع المطر، لكن الريح لم تهدأ، لا بل إنها كانت تشتد أحياناً، وهي تنفض البلل عن الأغصان الرطبة، فبدا وكأن المطر في الغابة لا يزال مستمراً.

فوق ذرى الأشجار كانت السحب الداكنة تندفع إلى جهة مجهولة، فلم ترتفع السماء إلا قليلاً فوق غابة الشوح - سماء موحشة لنهار خريفي ماطر. وفي ساعة الفجر هذه شقت الغربان هدوء الغابة الصباحي، فراحت تنعق في الجوار. وكان هذا النعيق الجامح يشي بخطر مبهم. وراح هويدور يصغي، ويفكر بقلق: أي شيطان دفعها لأن تطلق لنفسها العنان؟ أراد أن يقف فيخيفها، لكنه لم يجد القوة اللازمة لذلك، فبعد هذه الليلة المنحوسة كان يشعر بالنعاس، فظل جالساً في مكانه لا يريم، وهو شبه نائم. شيئاً فشيئاً بدأ النور ينتشر، وفي الجوار راحت تتضح المعالم - ضفائر أغصان الشوح، فروع الأشجار اليابسة البارزة، والأرض الرطبة، المغطاة بأهداب الصنوبريات بكثافة. وفجأة ظهر في أجمة الشوح، من مكان ما، أرنب، وبعد أن تلفت برأسه يمنة ويسرة، أقعى طويل الأذنين، على

قائمتيه الخلفيتين، وبكل عناية راح يمسح بوزه، ذا الشوارب. لم يشاهد هويدور، الذي تسمر في مكانه للحظة، كي لا يخيفه. على الأرجح، أن الأرنب لم يره، وقد جرى بجانبه، ثم اختفى وراء العرعر. أما الغربان فاستمرت تشق حناجرها في الأعلى - هل تطارد أحداً، أم إنها ببساطة تتشاحن فيما بينها؟ وفكر هويدور: يبدو أن لديها هي الأخرى خلافاتها، على غرار البشر. على الرغم من أن الخصومة، التي تحدث بين البشر، يستحيل أن تحدث لدى أي كان في العالم. فالغربان تتصارع فيما بينها، وتصرخ قليلاً، ثم تتفرق، وبعد دقيقة تنسى الخصام. أما الإنسان فلا ينسى الإساءة، وقد يستمر عداؤه مدى الحياة. إن الإنسان على كل حال كائن لا يرحم.

ولولا الجوع ربما كان سيبقى جالساً على هذه الحالة في غابة الشوح، حيث الهدوء والطمأنينة، إجمالاً، على الرغم من أن المكان مبلل وغير مريح، لكن الجوع أثار لديه تشنجات مؤلمة في معدته، وانقباضاً في فم المعدة، فراح يتساءل حائراً: من أين يأتي بالطعام؟ كان يعرف أنه لا يمكن العثور في الغابة على شيء، باستثناء الفطر. كان بالإمكان جمع الكثير من الفطور، خاصة بالقرب من المستنقع. لكن الفطور لا تؤكل نيئة، فهو لم يعد يجرؤ على إشعال النار. ومن جديد عادت القرية تداعب أفكاره أكثر فأكثر، حيث شجرة الكمثرى على أطراف الغابة. يبدو أن ثمارها المتعفنة أصبحت الطعام الوحيد الممكن بالنسبة له، وأنه لن يتمكن من العثور على أي شيء آخر في الجوار.

إلى أن خرج من غابة الشوح، كان قد تبلل من رأسه حتى أخمص قدميه - فكلما لامس غصناً انسكبت عليه حفنة من القطرات الباردة. كان

الجو في الغابة بارداً، قارساً، لكن ما العمل - لا بدَّ من التحمل. لقد تعود على تحمل البلل والبرد. آه لو أنه تعلم تحمل الجوع أيضاً. لكن من الواضح أنه ليس بمقدور أحد، لا الحيوان ولا الإنسان، التغلب على الإحساس بالجوع. فالجوع سيد قاس لا يرحم، يملي إرادته على الجميع.

مشى هويدور عبر الغابة متثاقلاً، وهو يختار الأماكن الجرداء، الخالية من الشجيرات، ويتجنب الأدغال المبللة. ولسبب ما راح يتساءل حائراً: ما هو هذا اليوم يا ترى؟ منذ عهد بعيد لم يعد يحسب الأيام، ولا يميز أيام العمل عن أيام الآحاد. لكن ما أهمية يوم الأحد بالنسبة له؟ فالحماسة، التي كان، حتى عهد قريب، يشعر بها، للقاء الديار، تلاشت إلى غير رجعة، وأصبحت أحاسيسه تحت سيطرة الشعور المسبق بقرب وقوع الفاجعة. لم يكن قد أدرك بعد سبب ذلك - أهو الخبر المفجع، الذي سمعه البارحة بشأن ابنه، أم إنه القلق الناجم عن اللقاء في حقلة البطاطا، أم إن هناك سبباً آخر؟ أو ربما هو نعيق الغربان، الذي ملأ الغابة في الصباح الماطر؟ وفكر هويدور؛ وهو يصيخ السمع لأصوات الغابة الغامضة: مع هذا يبدو أن الخلاف دب في صفوف الغربان.

وفي هذه المرة أيضاً لم يخنه سمعه، الذي أصبح مرهفاً لكثرة ما ضرب في الغابة. فقبل وصوله إلى طرف الغابة، حيث تنمو شجرة الكمثرى، التقطت أذناه أصواتاً غير بعيدة، واضحة. كان ثمة أحد هناك؛ فتيقظ، وأبطأ في السير. عبر الأجمة أصبحت مرئية البقع الخضراء من الأرض المزروعة والأعمدة على الطريق، والتخم الكثيف الحشائش، وعلى هذه التخم بالذات، غير بعيد عن

شجرة الكمثرى، كان يقف شخصان: كان أحدهما يطوي راحتي يديه بحرص، وهو يشعل سيجارة الآخر. وحين رفع هذا رأسه، عرفه هويدور - إنه شوركا، ابن ميخالينا، الصديق السابق لميكولكا. ذاك الذي فصله من الكمسمول، أما الآخر فكان يقف مديراً ظهره إلى الغابة، فلم يتمكن هويدور من معرفة هويته. وبعد أن أشعلا سيجارتيهما، استدارا نحو الجهة التي يتناهى منها حديث غير واضح، وبدوره أرسل نظره هويدور إلى تلك الجهة، من خلف الأجمة. على طول الحقل انداح منعطف الحاشية الطويل، وهناك رأى نحو ستة رجال واقفين، تفصل أحدهم عن الآخر مسافة تقرب من العشرين متراً. كانوا بانتظار شيء ما. إنهم بالطبع أبناء قريته، اثنان كهلان، وأربعة شبان. كان يعرفهم جميعاً. فالأقرب هو ميخاسيا مايسترينكا، صاحب الأرض المقابلة لأرضه، وكانا قد تشاتما مرتين بسبب طيور الإوز، التي أتلفت المزروعات في حاكورة ميخاسيا. وغير بعيد عن مايسترينكا كان يدبدب ليوكسا سافتشيك، نحيلاً، تبدو عليه علامات الكهولة، بصدغين أبيضين تحت حافة السيدارة السوداء، يرتدي سترة طويلة، ويتأبط سوط الرعاة. يا إلهي. يا له من لقاء - فكر هويدور بأسى. لكن ما بالهم يقفون هنا، من ينتظرون؟ وكأن الإلهام جاءه فجأة: لقد جاؤوا لاصطياد الهارب. لقد تفرقوا على شكل سلسلة، كما في الحرب، أو عند صيد الذئاب شتاء. لكنهم سوف يهاجمونه بدون أعلام، لأنه إنسان، وليس ذئباً، إن التعامل معه يمكن أن يكون أبسط.

على ساقيه، اللتين دب فيهما الضعف، عاد هويدور أدراجه خبباً، باتجاه أعماق الغابة. كان يرتجف بكل كيانه من القهر واليأس، وقد شعر مسبقاً بالفاجعة

الوشيكة، حيث لا يمكن أن تفعل شيئاً، أو تقول شيئاً لتبرير ساحتك. كل ما كان بوسعه القيام به هو الهرب، البحث عن ملاذ، كما الوحش، لا كما الإنسان. لا ينبغي للإنسان أن يهرب من البشر، لأن الهرب هو دائماً ذل، لكن يبدو أنه لم يبق له إلا تجرع هذه الكأس الأخيرة، فهو ليس بالإنسان.

في الغابة، ذات الأشجار الصغيرة الهجينة، على السفح المنحدر، انحرف يميناً، باتجاه الطريق والغمر، المكان نفسه، الذي مر به لثلاثة أيام خلت، وهو في ذروة الفرح. كان عليه على الأرجح، حين كان ذلك ممكناً، أن يغادر هذه الغابة؛ فالغابة لم تعد ملاذاً له. أصبحت الغابة لهم، وفي الغابة سيحاولون الإمساك به. لكن كلا، فهو على أي حال لن يستسلم لهم. وما دامت لديه القوة، سوف يسبقهم. ولن يسمح لهم أن يسوقوه إلى ذلك المكان، الذي أفلت منه بجهد جهيد. إنه لن يعود إلى هناك.

كان هويدور يجري بصعوبة، لا يكاد يميز الطريق، وبخط مستقيم شق دربه عبر غابة الحور الرومي، فتبلل من رأسه حتى أخمص قدميه. وفي الخلف كان السكون مخيماً، يبدو أنهم لم يبدؤوا المطاردة بعد، فغذ الخطى، لكي ينجح في الخروج من الغابة إلى منطقة الغمر، فهناك، على طول الجدول، كانت الأرض غريبة، تابعة لمنطقة ما وراء النهر، وربما لا يعرفون بأمره هناك بعد. لم يبق له إلا القليل من الجري عبر الغابة، ومن هناك، من الحاشية يتكشف المشهد عن الشعب العريض والطريق الرئيس. لكنه يكاد يختنق، ولم يصل الحاشية إلا وهو على آخر رمق من التعب والإرهاق. وقبل الخروج من الغابة، ألقى نظرة على الوهدة، لم يكن ثمة أحد، بعد ذلك نظر

نحو تلة الصنوبريات، وعلى الفور أقعى على الأرض. فعلى الطريق، تحت أشجار الصنوبر، كانت تقف السيارات. ثلاث شاحنات «بولوتوركي»، وقد انفصل عنها ربما ثلاثون شخصاً، إن لم يكن أكثر، يتحركون باتجاه الغابة فرادى، وفي مقدمتهم عبر العشب، الذي نما بعد الحشة الأولى، كان يسير بحزم رجل طويل في معطف مطري أسود، مفتوح على مصراعيه. كان يقول شيئاً ما للباقين، وهو يشير إلى الغابة بحركة واسعة، يبدو أنه كان يعطي إشارة التوزع، على شكل سلسلة.

أدرك هويدور كل شيء على الفور، فدار على عقبيه بحدة، وولى الأدبار، عائداً إلى الغابة. على كل حال، كانت لديه فرصة ضئيلة في النجاة، فأولئك لا يزالون يعبرون الوادي، وإلى أن يتسلقوا السفح، ويتجهوا نحو الغابة... أبداً، سوف يبتعد عنهم، ولن يمكنهم من اللحاق به. لكن إلى أين يهرب من هنا - تلك هي المشكلة. إلى اليسار تقع نيدوليشي وسلسلة أبناء قريته، ومن خلفه - هؤلاء، القادمون من الناحية. جميعهم يرتدون الأسود، وهو ليس لباس أهل القرية، إذن فهم من الناحية. إنهم على الأرجح القيادة والنشطاء. إنهم خلفه. إلى يمينه غابة الشوح، وبعدها مناقع بوغوفيزنا، حيث لا مجال للعبور. إذن هل يعقل أن المخرج بالنسبة له هو في السير إلى الأمام؟ هناك حيث حقلة البطاطا والقرية، وحيث صادف البارحة العجوز يرعى البقرة... هل يعقل أن لا أحد هناك؟ سيكون ذلك توفيقاً، المهم أن يتمكن من الوصول إلى هناك. لحسن الحظ أنهم لم يروه قبل أن يراهم. لقد زرع ذلك في نفسه الأمل. المهم أن لا تخونه رجلاه. كان الجري صعباً، فقد

أضناه ضيق النفس، وفي فمه كان يتجمع اللعاب المر، كانت مرارة اللعاب تبقى حتى بعد أن يبصقه. وتحت الثياب المبللة الثقيلة راح العرق الساخن ينسكب على كتفيه وصدره، وتعرق وجهه، فكان لا يكف يمسحه بكمه. كان تارة يجري وتارة يخب بخطى غير واثقة، وهو يتلفت، ويبتعد شيئاً فشيئاً عن الطريق العام وعن القرية أيضاً. لكن الحفاظ على الاتجاه اللازم في الغابة لم يكن بالأمر السهل، يبدو أنه انحرف كثيراً، وأصبح قريباً جداً من بوغوفيزنا، وحين أدرك ذلك، انحرف إلى اليسار قليلاً، كي يخرج من الغابة إلى حقلة البطاطا. كان المهم بالنسبة له هو التملص من كماشة المطاردة، التي أحاطت به، قبل أن تنطبق عليه. وبدأ الأمل يراوده في أن يتمكن بطريقة ما من سبق مطارديه. يبدو أنه تخلص من أولئك، القادمين من الناحية، أما أبناء قريته، فهم على الأرجح لا يزالون يدخلون الغابة، وربما لن يدخلوها، بل سينتظرونه على الحاشية، المهم أن يصل إلى الحقلة.

لكن قواه كانت تتناقص، وهو يجرجر قدميه عبر العشب المبلل، بتهيج، ويتعثر. ولم يكن يكف عن التلفت، بحثاً عن مطارديه. غير أنه لم يرهم، وإن كانت أصواتهم تسمع من الخلف، من الطريق العام، فهناك، على ما يبدو، توزعوا على شكل سلسله عريضة. كانت الأصوات والصيحات تزداد قوة، ثم سمع نباحاً. إنه ليس نباح كلب الرعاة، الذي طارده البارحة، بل أكبر منه حجماً، على الأرجح. وجرى هويدور من جديد - خبباً ثقيلاً يائساً، وهو يتلفت باستمرار. كان منصرفاً بكل كيانه إلى ما يجري خلفه. على الأرجح أنه فوت اللحظة. التي كان عليه فيها أن ينظر أمامه، فخلف أجمة

العرعر كاد يصطدم بأرنب، يندفع للقائه بقفزات عريضة، لكنه ما إن رأى الإنسان أمامه، حتى حاد عن الطريق، ثم ارتد على أعقابه - من حيث جاء. وفكر هويدور بينه وبين نفسه؛ وهذا خائف، ثم توقف. فمن المكان الذي اختفى فيه الأرنب ترددت صيحه قوية غاضبة:

- قف، وإلا أطلقت النار.

- على من ستطلق النار؟ إنه أرنب...

فأطلقوا هناك ضحكة شباب مرح.

مد هويدور عنقه بتيقظ. لاحت قبعتان خضراوان في الأمام، بين أوراق العرعر الصفراء، ومن بعيد أطلق أحدهم صيحة خافتة، فاختفتا. أدرك هويدور أن الطريق إلى هناك أيضاً مقطوع: يبدو أن رجال حرس الحدود آتون من حقلة البطاطا. كان مخفرهم على بعد كيلومترين، خلف الغابة. لكن لماذا حرس الحدود؟ فهل هو جاسوس، أم مخرب، أم منتهك الحدود؟ أم هل فر من السجن، حيث زج به، لجريمةٍ ارتكبها؟ كل ما في الأمر أنه جاء إلى موطنه، حيث ولد وترعرع؛ وحيث ولد أسلافه، وقضوا حياتهم. إذن فلماذا حرس الحدود؟

لكن يبدو أنه أسوأ من الجاسوس. لأن الجاسوس لا يطارده إلا حرس الحدود، أما هو فقد أحاطت به ثلاث سلاسل من المطاردين: فبالإضافة إلى حرس الحدود، هناك أيضاً نشطاء الناحية وأبناء قريته. يا له من ذئب! يا له من فريسة حرجيه! هل سبق لأحد أن رأى شيئاً كهذا؟

ولحسن حظه أن أحداً من المطاردين لم يره بعد، فقد كان هو أول من يرى الخطر. حتى الآن كان التوفيق حليفه، لكن هل سيستمر هذا التوفيق طويلا؟ لا شك أنهم مع هذا سيرونه، فهو ليس عفريت الغابة الخفي. صحيح أنه يعرف جيداً هذه الناحية من الغابة الأميرية؛ لكنهم بدورهم كانوا يعرفون الغابة لا أسوأ منه، ولا سيَّما أبناء قريته - هذا ما خطر ببال هويدور. أصبح الآن يجري، دون أن يعرف إلى أين، يبدو أنه فقد الهدف، وازداد انحرافاً نحو الجهة الرابعة - إلى هناك، حيث لا يوجد مخرج. في الجهة الرابعة يقع الطريق المسدود، منطقة المستنقعات - بوغوفيزنا، التي لا يجرؤ أحد على دخولها حتى صيفاً. حتى الوحش لا يدخلها، فما بالك بالإنسان ففيها يعشش الفيضان والهلاك حتى موسم الصقيع.

إذن إلى أين يتجه؟

لم يعد يجري، بل أصبح بالكاد يجرجر قدميه وطرف غابة الشوح المظلمة، وحذاؤه يتعثر في الحشائش المبللة، وهو لا يكف يصيخ السمع، محاولاً أن يفهم ما يحدث خلفه، حيث تتردد الأصوات العالية بما فيها نباح الكلب القوي. على الأرجح أن السلاسل تلاقت، وأنهم فوتوه. لعلهم يرتدون على أعقابهم، باتجاه الطريق العام للقرية - فكر هويدور بأمل ضئيل، ثم توارى خلف شجرة شوح. على الأقل لو يتركون له فرصة لالتقاط أنفاسه، ففي صدره المستعر تعثرت كتلة مرة ضاغطة...

بيد أنهم لم يدعوه يلتقط أنفاسه.

لقد أصبحوا في مكان ما قريب، لكن الأشجار كانت تحول دون رؤيتهم. وإجمالاً فالأشجار كانت تخفيه هو أيضاً. لكن ها هو يسمع صيحات متحمسة، وصوت أحدهم: «إنها آثاره، تعالوا، إنها آثاره». فأدرك أنه لن ينجو منهم. فعددهم بالعشرات من الفلاحين وأفراد الجيش الأحمر، وقد أحاطوا بالغابة إحاطة السوار بالمعصم، بينما هو وحيد. إنه عاجز تماماً، لا يعلم إلى أين يهرب، ولا إلى أين المفر. على الأرجح أنه عبثاً قطع هذه الأمتار الأخيرة.

شيء ما مر بسرعة بين الحشائش، أمامه - إنه ذلك الأرنب نفسه. في البداية هرب من جنود الجش الأحمر، أما الآن فيهرب منه، على ما يبدو، لكن لماذا يهرب منه؟ إنه هو نفسه كما الأرنب، وربما أسوأ، لأن الأرنب سوف ينجو على الأرجح..

وفي دخيلة نفسه أطلق عويلاً يائساً: «لماذا تفعلون بي هذا يا ناس؟ بماذا أسأت إليكم؟ أبسبب الدراسة؟ لكن بماذا أضرتكم؟ لا بل إنها ساعدتكم، أم أنني جنيت الكثير؟ لكنني أعطيتكم كل شيء - فخذوه. فلماذا تفعلون بي ما تفعلون؟ عودوا إلى رشدكم يا ناس...».

لكن أحداً لم يكن ينوى أن يثوب إلى رشده، وظلوا يطاردونه كما يطارد مجموعة من الصيادين ذئباً. أما هو فظل الأمل يراوده في أن يتوقف أحد منهم ليصرخ: «قفوا يا إخوان! ما هذا الذي نفعله؟».

لكن أحداً لم يتوقف، ولم يقل، واستمروا يطاردونه.

- قف يا روفبا.

ها هو أخيراً.

منذ الخطوات الأولى لهروبه الطائش، كان ينتظر هذه الصيحة بالذات، ليلاً ونهاراً، ومع هذا فقد ترددت بشكل مفاجئ ومخيف. لم يلتفت هويدور على الفور: هناك بين أشجار الشوح تراءت قامات الناس الداكنة - لكن هل هم أبناء قريته، أم أفراد الجيش الأحمر، هذا ما لم يميزه حتى. المهم أنه فهم - لقد رأوه. لكن لم يبق ثمة من مكان يهرب إليه، على الأرجح أن طريقه الطويل ينتهي بشكل لا مفر منه. الطريق السخيف اللامعقول إلى الديار، من على بعد آلاف الفيرستات. لكن الأرض الأم لم تستقبل ابنها بحنان... سامحها الله، لقد حدث ما كان ينبغي أن يحدث. يبدو أن هذا قدره. فقدره الملعون هو الذي كان وراء ولادته فلاحاً في زمن كهذا.

انتهت غابة الشوح المظلمة، وبدأ شريط الطحلب المستنقعي الرطب. ودون توقف، دخله هويدور جرياً - هبطت الطبقة السميكة من الطحلب تحت قدميه، منذرة بالخطر الداهم، فغاصت ساقاه حتى الركبتين في الحمأة السوداء المبقبقة. لا شك أن التقدم أكثر كان ضرباً من الجنون، لكن أي شيء لم يعد جنوناً الآن؟ أمامه كانت تهتز على وقع الريح، عيدان القصب السقيمة، ومن خلفها ترتفع بمهابة أجمات الصفصاف والحور، وبين الأكوام الخضراء كانت تلمع بشكل خافت النوافذ السوداء للمستنقع الرهيب. بجهود يائسة، راح هويدور يتحرك إلى الأمام وهو ينتشل حذاءه الذي زاده الطين ثقلاً. لم يلبث أن غطس حتى خصره فراح يدفع بجسمه طبقة الطين السميكة إلى أن وصل إلى النتوءات الأخيرة، المغطاة بالنباتات المائية (akoros). لفترة قصيرة

كان ثمة سند تحت القدمين، فالقاع مغطى بالجذور المتشابكة، لكن ها هو ذا القاع يغطس إلى الأعماق بحدة، فشعر هويدور وكأنه سقط من فوق جرف - فقد اختفى في اللجة الباردة العكرة. لكنه لم يلبث أن ظهر برأسه فوق السطح، بعد أن فقد طاقيته، ولكيلا يغرق في هذا الطمي الكريه الرائحة، تشبث بيده بجذر رطب، يمتد من النتوء، وإلى هذا الجذر يعود الفضل في نجاته من الغرق، فعلى كل حال بقي رأسه فوق السطح. وراح هويدور يتنفس بتشنج ونهم.

كانت الأصوات في الغابة، خلف المكان المغطى بالطحلب، تتردد مكبوتة. وكان الكلب ينبح بصوت عميق. يبدو أن المطاردين التقوا في مكان ما، وتوقفوا. على الأرجح أنهم فقدوه، أو أنهم لا يرغبون في دخول المستنقع البارد والقذر. وبشكل واضح كانت تصل إليه بعض تعليقاتهم: «إنه هنا في مكان ما...» إنه هناك في المستنقع «هل رأيتم أين حشر نفسه!» «سوف يخرج، لا خيار أمامه، هذا الخنزير الكولاكي». «أبداً، لن أخرج» - قال هويدور لنفسه في يأس غاضب. وبحركة لا إرادية من جسمه، دفع طبقة ممزقة من النباتات الطافية، كان لا يزال في الماء حتى عنقه، تخفيه عن الضفة دغلة القصب والنتوءات، أما أولئك، على الضفة، فقد خافوا من المستنقع، على ما يبدو، حتى إنهم لم يقتربوا منه. وحتى هو نفسه، كان يحدث في الماضي أن ينظر برعب إلى المستنقع المزنر بالنتوءات وشجيرات الصفصاف؛ فيشعر بالخوف الوسواسي من مجرد الاقتراب منه. أما الآن فهو يجلس فيه بهدوء، وينتظر. تخشبت أطرافه من شدة البرد، وفي داخله انقبض كل شيء في عقدة

ألم متوترة. كان يتباطأ، لكن على الأرجح أنه لن يتمكن من التباطؤ طويلاً، وأن كل شيء سينتهي قريباً. كانت دراعة الجوخ الثقيلة، على كتفيه، تشده بإلحاح إلى الأسفل، وكان حذاؤه الثقيل يجره إلى الهاوية السحيقة. يبدو أنه يفتقر إلى العزم الكافي للتخلي عن جذر الصفصاف الرطب، والانتقال بهدوء إلى العالم الآخر. كأن الأمل بشيء ما لا يزال يراوده، وكان تنفسه متواتراً ومتقطعاً، كما السمكة الملقاة على الرمل.

- اخرج يا روفبا - ترددت صيحة قريبة، خلف دغلة القصب - اخرج بالتي هي أحسن. أيها المواطن روفبا! باسم السلطة السوفييتية، أعرض عليك أن تسلم نفسك...

كانوا يصيحون هناك، لكنه لم يكن يهتم كثيراً بالإصغاء إليهم. لم يكن لديه للخروج من هنا لا القوة، ولا الرغبة أيضاً.

- إنني لا أرى شيئاً هنا...

- إنه هناك، هاك آثاره في دغلة القصب.

«أيها الناس، يا ناس! لماذا تفعلون هذا، يا ناس. هذا ما دار في خلد هويدور، دون أن يعرف لمن يوجه نداءه».

لكن ها هم أولاء يتقدمون. اقترب هويدور من الماء قليلاً، ومن جديد اهتزت النباتات المائية من حوله، وأدار رأسه فرأى اثنين بين نباتات السعد، القريبة من الضفة، وهما يتقدمان بحذر، فيرفعان أرجلهما عالياً. كان ثمة في يدي أحدهما عصا طويلة ورفيعة، وتساءل هويدور بينه وبين نفسه: هل ينويان

البحث في الدغلة بواسطتها. كان يراهما جيداً من هنا، إنهما شابان غريبان، لا شك أنهما من شبيبة الناحية. وهناك، خلف الأدغال، غير بعيد، كان الكلب ينبح بكسل، لكنهم لم يتركوه يدخل المستنقع، على ما يبدو.

- التقدم أبعد مستحيل.

- هيا، هيا، تقدم أكثر - تناهى صوت من الجانب. لم يكد هويدور يسمع هذا الصوت، حتى احتبست أنفاسه.

لقد عرف هذا الصوت، إن من شأنه أن يعرفه في العالم الآخر أيضاً، لأنه صوت ابنه. وخطر لهويدور فجأة: مسكين ميكولكا، وعليه أيضاً أن يدخل إلى هنا. لكن من الواضح أنه لم يأت بمحض إرادته، وأنهم أرغموه على ذلك، على الأرجح.

يبدو أن ذينك الشخصين، حاملي العصا، قد انحرفا قليلاً، بعد أن أضاعا الهارب، باتجاه أجمة الصفصاف، ظناً منهما أنه هناك. لكنه لم يكن لا هناك ولا هنا - فهو يكاد يكون غير موجود هنا. لم يبق له إلا القليل جداً، فقط أن ينظر إلى ابنه ويودعه. ما إن ير ابنه حتى يرحل. لم يبق له ما يفعله في هذه الدنيا.

كان الشابان منصرفين إلى العمل بالعصا في دغلة الصفصاف، أما ميكولكا فلم يظهر بتاتاً. مسكين ميكولكا كم يعاني الآن، على الأرجح أنه لم يأت بإرادته، بل أرغموه. ربما أمروه؟ أحد رؤسائه الأعلى. لأن فوقه رئيساً، دون شك، فأرسله للإمساك بأبيه، بعد أن تخلى عنه. طالما أنه تخلى عنه، فبالإمكان

الإمساك به. لكن إذا كان ذلك ممكناً فكيف يمكن للمرء أن يعيش؟ ولأجل أي شيء يعيش؟ كلا إن الحياة في هذه الدنيا غير ممكنة بالنسبة إليه.

- ابحث هناك يا ليوشا!

إنه ميكولكا أيضاً، ينادي من مكان ما، بصوت قيادي آمر، صوت لم يسبق لهويدور أن عرفه منه من قبل. إنه يسمع هذا الصوت للمرة الأولى، فكان كمن يطعن في قلبه في الصميم. لقد حالف الحظ غانولكا، فهي لن ترى مثل هذا، ولن تسمعه أبداً.

وفي هذا الوقت دبت الحركة في دغلة الصفصاف المجاورة، ومزقت نهاية العصا الأوراق الكثيفة مخترقة إياها. إذن جاء دور النتوء الذي يحتمي به. لكنهم على الأرجح لن ينجحوا، سوف يسبقهم. لسبب ما أخذ هويدور نفساً عميقاً، وأفلت من يديه الجذر المعقد. وعلى الفور جرته قدماه، المثقلتان بالحذاء، الذي ظل سليماً، نحو أعماق المستنقع. فشرق بالماء. ولسبب ما شعر بألم في أذنيه، وأظلم كل شيء في عينيه.

لم يتمكن من الحياة بهدوء، لكنه على الأقل مات بهدوء. ظلوا يبحثون عنه طويلاً، ينقبون بالعصي في الأجمات والنتوءات، وفي أدغال القصب، لدى الضفة، لكنهم لم يعثروا له على أثر.

عام ١٩٨٦

* * *

فهرس

الصفحة

فاسيل بيكوف

(١٩٢٤-٢٠٠٣)

- كاتب بيلاروسي غزير الإنتاج في الروايات السوفيتية البيلاروسية التي تتحدث عن الحرب العالمية الثانية.
- أكسبه عمله على ترشيحه لجائزة نوبل من بين آخرين الحائزين على جائزة نوبل جوزيف برودسكي وتشيسلاف ميلوش.

- من أعماله المؤلفة:

- سوتنيكوف.
- والفجر هادئ هنا.
- النصب.
- الذائاب.

د. هاشم حمادي

- مترجم وباحث جامعي.

- دكتوراه في الصحافة من جامعة موسكو في عام ١٩٨٢م.

- **من أعماله المترجمة:**

- النظام العالمي الجديد في القرن الحادي والعشرين.
- الظلف الفضي.
- الأخوة الثلاثة.
- الحرب والسلم.
- الرائد فيتروف.
- النفوس الميتة.
- المفتش.
- دون كيشوت.
- والكثير من الأعمال الأخرى.

٢٠٢٢م